



الصيب الهطال

في كشف شبه ابن كمال

« رسالة في الدفاع عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية »

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد الكتلاني
رحمه الله

اعتنى بها
سليمان بن صالح الخراشي



دار العاصمة
للنشر والتوزيع


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الصيب الهطال

في كشف شبه ابن كمال

«رسالة في الدفاع عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية»

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد الكتلاني
رحمه الله

اعتنى بها
سليمان بن صالح الخراشي

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الكتاني، أحمد محمد

الصيبب الهطال في كشف ابن كمال. / أحمد محمد الكتاني ؛

سليمان صالح الخراشي.- الرياض، ١٤٣١هـ

١٣٨ ص، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٠-١٠-٨٠٥٧-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الإسلامية ٢- الدعوة السلفية - السعودية

أ- الخراشي، سليمان صالح(محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٤٠،٩٠١ ١٤٣١/٢٥٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣١/٢٥٦٥

ردمك: ٠-١٠-٨٠٥٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب: ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي: ١١٥٥١

المركز الرئيسي: شارع السويدي العام

هاتف: ٤٤٩٧٢٢٤ / فاكس: ٤٤٩٧٢٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد؛ فإن التوفيق إلى الحق، ولزوم صراط الله المستقيم، أمرٌ رباني، يمن الله به على من يشاء من عباده، ولا يخضع لعاملَي الزمان والمكان. فكم من أناسٍ عاشوا بين ظهرانَي أنبياء الله، وفي ديارهم، ولكنهم أعرضوا، واستكبروا عن الحق، ونكصوا على أعقابهم من بعد ماتبين لهم الهدى. وكم من أناسٍ موفّقين، لم يحظَوا برؤية الأنبياء، ولكنهم آمنوا بما جاؤوا به من عند ربهم، كما أخبر الله عن هذا الأمر بقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾.

ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ﷺ، السلفية، ليست بِدعًا من هذا، فقد عاداها بعض من هم أقرب إليها نسبًا ومكانًا وزمانًا، وشرقوا بها[١]، وتلقاها غيرهم بقَبول حسن، وهم ناؤا الزمان والنسَب عنها، وبينهم وبينها الجبال والوهاد مكانًا[٢]. كما قال الصنعاني في قصيدته المشهورة في مدح الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمهما الله -:

سلامي على نجدٍ ومَن حلّ في نجد ... وإن كان تسليمي على البُعد لا يُجدي

لقد صدرت من سفح صنعا سقى الحيا ... رُباها وحياها بقهقهة الرعد

سرت من أسير ينشد الريح إن سرت ... ألا يا صبا نجدٍ متى هجت من نجد

قفي واسألي عن عالمٍ حل سُوحها ... به يهتدي من ضل عن منهج الرشد

محمدٍ الهادي لسنة أحمدٍ ... فيا حبذا الهادي ويا حبذا المهدي

لقد أنكرت كلُ الطوائف قوله ... بلا صدَر في الحق منهم ولا وِرد

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه ... يُعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي

وينشرُ جهرًا ما طوى كلُ جاهل ... ومبتدع منه، فوافق ما عندي

ويعمر أركانَ الشريعة هادمًا ... مشاهدَ ضل الناسُ فيها عن الرشد

أعادوا بها معنى سُواعٍ ومثله ... يغوث وود، بئس ذلك من وِد

---

(١) انظر نماذج لهم في رسالة: «المعارضة المحلية لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد»؛ للدكتور محمد بن عبدالله النويصر.

(٢) انظر نماذج لهم في رسالة: «انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية»؛ للأستاذ محمد كمال جمعة.

إلى آخر ما قال..[1]

ومن هؤلاء النائين غير المناوئين: مؤلف هذه الرسالة التي بين أيدينا: الشيخ أحمد بن محمد الكتلاني رحمه الله، من جنوب الجزيرة العربية، الذي اعتنق مبادئ الدعوة السلفية، وآمن بها، رغم مابينه وبينها من مسافات، ثم تصدى لمن حاول تشويهها والتشنيع على أهلها برد شبهاته، وكشف تُرهاته.

ومن تأمل رسالة الشيخ الكتلاني رحمه الله يجد أنه قد استوعب تراث الدعوة السلفية من كتبها المعتمدة، ثم صاغه بأسلوبه المختصر السلس، بما يُناسب المتلقين في عصره، دون تكلف أو تطويل. وقد تمحورت رسالته حول بيان حقيقة دعوة الشيخ، في التركيز على إفراد العبادة لله وحده لا شريكَ له، وبيان منهجه في مسألة التكفير، وأنها مخصوصة بمن يرتكب النواقض التي تُخرجه عن الإسلام، وعلى رأسها: صرف شيئ من العبادة لغير الله تعالى، لا كما يزعم المغرضون من أنه يُكفر «المسلمين»!

ولو عقل هؤلاء؛ لعلموا أن الحديث معهم سيدور في حلقة مفرغة، وجدال عقيم؛ عندما يتهمون الشيخ وأتباعه أنهم يُكفرون المسلمين، أو أن عندهم غلوًا في التكفير.. الخ تهمهم؛ لأنه سيُرد عليهم بأن الشيخ يُصرح بأنه يبرأ من ذلك كله، وأنه إنما يُكفر من وقع في الشرك الأكبر.

فالخلاف ينبغي أن لا يكون في مجرد (وجود) التكفير في كتب الشيخ أو علماء الدعوة السلفية؛ لأنه لا إسلام دون تكفير مَن يستحق التكفير - لو كان

(١) ديوانه (ص ١٦٦ - ١٧٠).

الخصوم يعقلون -، ولأن نصوص الكتاب والسنة حافلة بهذا، وكتب فقهاء الإسلام لا يخلو واحد منها من «كتاب الردة»، يوردون فيه الأمور التي إذا ما قالها أو فعلها المسلم فقد ارتكب ناقضًا يُخرجه من الإسلام، فهل سيقولون لهم ماقالوه للشيخ؟!

إذن؛ فالخلاف ينبغي أن يكون في حقيقة مَن كفرهم الشيخ؛ هل هم مسلمون؟ أو أنهم نقضوا إسلامهم بما ارتكبوه من أقوال أو أعمال شركية؟

وينبغي أن تنصرف جهود خصوم الشيخ - ومَن وافقهم - إلى إثبات أن من كفرهم الشيخ مسلمون - رغم صرفهم أنواعًا من العبادة لغير الله؛ من نذر أو ذبح أو دعاء .. الخ.

هاهنا المعترك بين الشيخ وخصومه.

أما الصياح بأن الشيخ كفر هؤلاء أو قاتل أولئك، والاعتقاد بأنهم بهذا أقاموا الحجة على أن دعوة الشيخ «فيها غلوٌ في التكفير»! فهذا سذاجة وجهل؛ لأن الشيخ وعلماء دعوته لم يُنكروا هذا كله - رغم التزيدات والفهم السقيم -، بل هم يُقرون ما ثبت منه، ولا يعدونه مذمة - مادام مرجعه الأدلة الشرعية.

فالخلاف ينبغي أن يكون في: «هل يستحق هؤلاء المكفَّرين» أن يُحكم عليهم بذلك، أو لا يستحقون؟! ويكون المرجع في هذا: الأدلة الشرعية بفهم سلف الأمة، لا مجرد العواطف والأماني التي يعقبها «التباكي».

وهذا مافعله الشيخ الكتلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عندما بيّن لخصم الدعوة «ابن كمال»

حقيقة دعوة الشيخ محمد، ورأيه في مسائل التكفير، إضافة إلى بعض الأمور الأخرى.

ترجمة المؤلف:

أشار الدكتور عبدالعزيز آل عبداللطيف - حفظه الله - في رسالته القيّمة «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب»[١] إلى رسالة الكتلاني هذه، ثم قال في الهامش: «لم أعثر له على ترجمة، وقد سألت الشيخ عبدالله الخليفي إمام الحرم المكي في شهر ذي القعدة ١٤٠٦هـ - لأنه قام بتصحيح كتاب الصيّب الهطال للكتلاني - عن ترجمته؛ فلم أحصل منه على جواب».

قلت: وقد حاولت بالبحث في المظان أن أجد ترجمةً للشيخ الكتلاني؛ فلم أتمكن، مع سؤالي من أثق به من المختصين[٢].

ويظهر من كلام المردود عليه «ابن كمال» أن الكتلاني كان ذا مكانة عند بني قومه، إما لكونه كبيرَ عشيرة، أو رئيسَ بلده، فهو يقول عنه: «أرى من سنتين أو ثلاث، ولم يزل من رعاياك اعتقادات فاسدة وأفعال ردية، فلازمٌ وواجبٌ على جنابك أن تأمرهم بالأفعال الحسَنة الموافقة للشريعة، فإلى الآن تركوا القنوت والجهر بالتسمية، واقفون على أقوالهم وأفعالهم»[٣].

---

(١) (ص ٢٥).

(٢) وآمل ممن يجد له ترجمة أن يبعثها إليّ، مشكورًا.

(٣) انظر (ص ١٢٦) من هذه الرسالة.

ويظهر أن زمن رد الكتلاني على ابن كمال كان بعد سقوط الدولة السعودية الأولى على يد الطاغية إبراهيم باشا عام ١٢٣٣هـ؛ بدليل شماتة ابن كمال بها؛ لأجل هذا السقوط - كما سيأتي -[١]، وبدليل ماجاء في خاتمة طبعة المكتب الإسلامي أنها كُتبت سنة ١٢٨٤هـ، فلعل فترة كتابتها تكون بين ١٢٥٠ - ١٢٨٠ هـ، والله أعلم.

أما المردود عليه:

فلم يُعرف عنه إلا ماذكره الشيخ الكتلاني في وصفه، أنه شيخ في السبعين من عمره، خبّ ووضع في التنفير عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية، قال المؤلف عنه: «هذا القائل مَنْ هو حتى يُلتفت إليه؟ ويُعول في أمر الدين عليه؟ إن هو إلا رجلٌ ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، فلفرط حمقه تكلم بما لا يعقله، ولو صحا عقله وأوتي رشده؛ لعلم أن الحيف ظلم، والكذب حرام»[٢].

وقال: «وإنما الغشاش لكل أمة: إمام المضلين، وشيخ الجاهلين، الذي قد جاوز السبعين، وأطاع اللعين، في تزيين دعوة الأحياء والأموات والطين والشياطين، واستزلهم بأحداث بدعية، وأغواهم بأوضاع جاهلية»[٣].

وقال: «ولو ذهبنا نذكر ما يشابه هذا نظمًا ونثرًا لطال الكلام، وهؤلاء

---

(١) انظر (ص ١١٤) من هذه الرسالة.
(٢) انظر (ص ٣٩) من هذه الرسالة.
(٣) انظر (ص ٤٥) من هذه الرسالة.

وأضرابهم عند ابن كمال أئمة الدين وخُلاصة الموحدين! واغوثاه!!»[١].

الطبعة السابقة للكتاب:

طُبع الكتاب سنة ١٣٨٥هـ، في مطابع مؤسسة الطباعة والنشر بجُدة، وجاء على غلافها: «قام بطبعه وتصحيحه ونشره: فضيلة الشيخ عبدالله الخليفي[٢]، إمام وخطيب المسجد الحرام، على نفقة المحسنين، وفقهم الله». وجاء في ختام الكتاب: «تمت هذه النسخة المباركة في يوم الأربعاء من رجب المبارك، الذي هو من شهور سنة ١٣١٣ من الهجرة النبوية، على مهاجرها أفضل الصلاة وأكمل التحية، وهي لأحمد بن محمد الكتلاني رحمه الله، ردًا على ابن كمال، بقلم الفقير إلى مولاه، المتبري من كل معبود سواه، محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخليفي[٣]، غفر الله له ووالديه ومشايخه وأحبابه والمسلمين، إنه هو أرحم الرحمن، آمين».

وطُبع - أيضًا - ضمن «المجموع المفيد من رسائل أهل التوحيد»[٤]، وجاء في آخرها: «بقلم: الفقير إلى الله، عبده وابن عبده: سعد بن عبدالله الحميدي، سنة ١٢٨٤هـ».

---

(١) انظر (ص ٧٤) من هذه الرسالة.

(٢) توفي رحمه الله عام ١٤١٤هـ. له ترجمة في «علماء نجد»؛ للشيخ البسام (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٩).

(٣) توفي رحمه الله عام ١٣٦٠هـ. له ترجمة في «علماء نجد»؛ للشيخ البسام (٤/ ٢٤٧)، تحت ترجمة والده.

(٤) (ص ١٦٣ - ٣١٢)، ط: المكتب الإسلامي.

نُسخ الكتاب:

وجدت للكتاب نسختين خطيتين:

الأولى: محفوظة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، برقم (٨٧٨٣/ ٧)، في ٣٦ ورقة، مكتوبة بخط معتاد، إهداء من ورثة الشيخ العبدان.

والثانية: محفوظة بمكتبة الشيخ حمود الشغدلي رحمه الله، بحائل[1]، برقم (٦٣٣)، في ٣٢ ورقة، عليها وقفية المقرئ: عمر الخطيب رحمه الله[2]، سنة ١٣١٠هـ، وجاء في آخرها: «تمت هذه النسخة المباركة في يوم الثلاثاء يوم سادس وعشرون من الشهر المعظم رمضان، الذي هو من شهور سنة ١٣٠٨ ألف وثلاثمئة وثمان سنين، من هجرة سيد المرسلين، وصفوة الخلق أجمعين، بقلم الفقير إلى مولاه، المتبري من كل معبود سواه، عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غناء له طرفة عين عن فضله ورحمته: إبراهيم بن عمر آل سايح[3]، غفر الله له، ولوالديه، ومشايخه، وإخوانه، وجميع المسلمين، آمين».

---

(١) أكرمني بها: الأخ الشيخ حمود بن حسين بن حمود الشغدلي - جزاه الله خيرًا -، وهو حفيد الشيخ الشغدلي صاحب المكتبة. ثم وجدتها في «فهرس مكتبة الحرم المكي» (١/ ٤٩٢)، برقم (٢٠٣٩).

(٢) توفي رحمه الله عام ١٣٥٥هـ. له ترجمة في «منبع الكرم والشمائل في ذكر أخبار وآثار من عاش من أهل العلم في حائل»؛ للأخ الشيخ حسان الرديعان (ص ٢٩٨ - ٢٩٩).

(٣) انظر: «منبع الكرم والشمائل في ذكر أخبار وآثار من عاش من أهل العلم في حائل»؛ (ص ١١٣).

لهذا، ولأجل جلالة موضوع رسالة الكتلاني رحمه الله، وحُسن سبكها، فقد أحببتُ إعادة طبعها، مع التعليق على مايستحق منها التعليق والتوثيق، سائلًا الله أن ينفع بها، وأن يُضاعف الأجر لمؤلفها، والله الموفق لكل خير، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه، وسلم.

كتبه/ سليمان بن صالح الخراشي

Alkarashi1@hotmail.com

كتاب الصيب الهطال

في كشف شبه بن كمال تأليف الشيخ الامام
الحبر البحر الهمام ناصر سنة سيد الأنام
وقامع بدع أهل الأوهام بقية السلف
الكرام أحمد بن محمد الكتلاني
قدس الله روحه ونور
ضريحه ورحمه
والمسلمين آمين

قام بطبعه
وتصحيحه ونشره
فضيلة الشيخ عبد الله الخليفي
امام وخطيب المسجد الحرام
على نفقة
المحسنين وفقهم الله

طبعت بمطابع مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر بجدة

صورة غلاف طبعة الشيخ الخليفي رحمه الله

المجموع المفيد

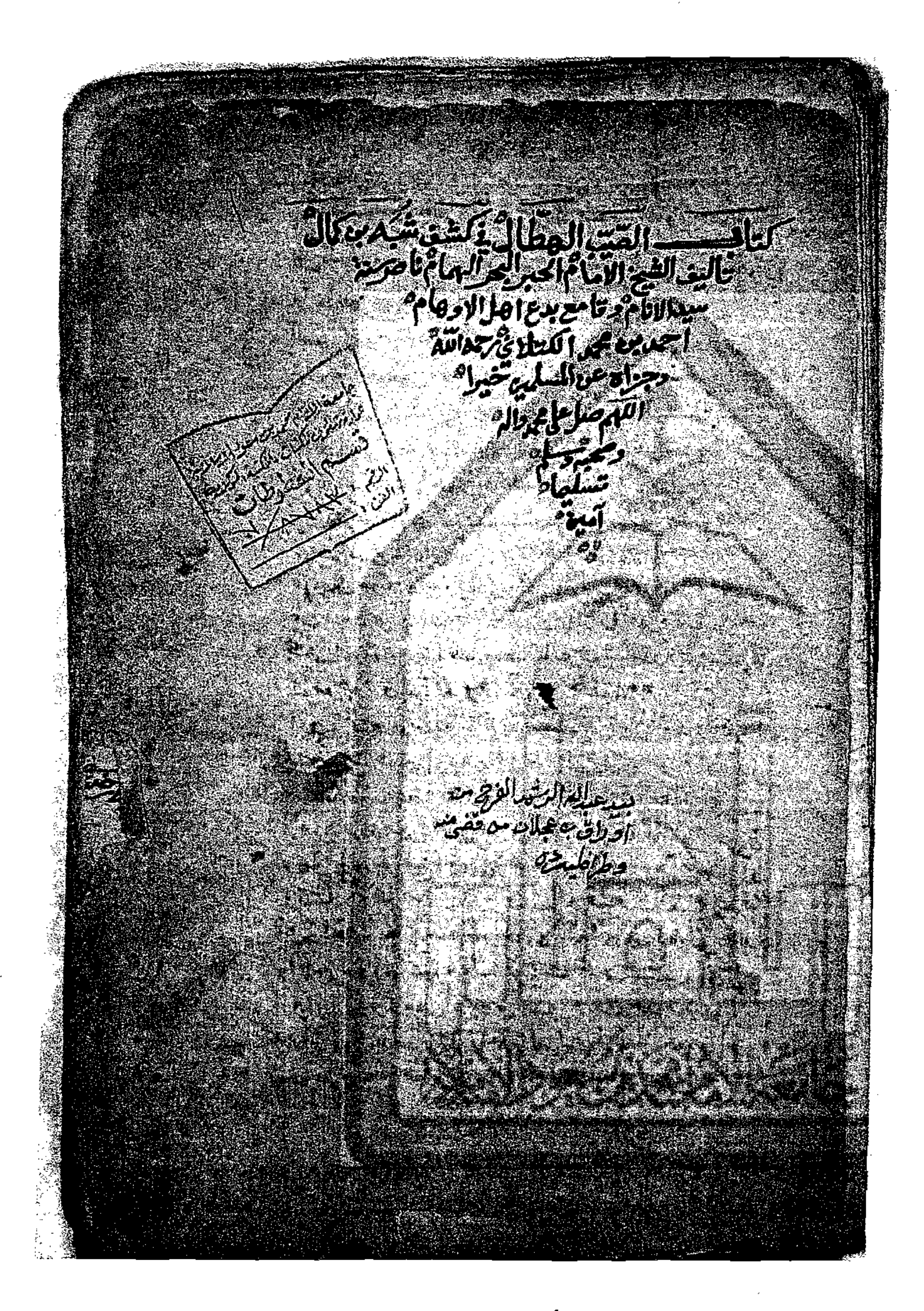
من رسائل أهل التوحيد

طبع على نفقة

حضرة صاحب العظمة سمو الشيخ علي آل ثاني المعظم
حفظه الله

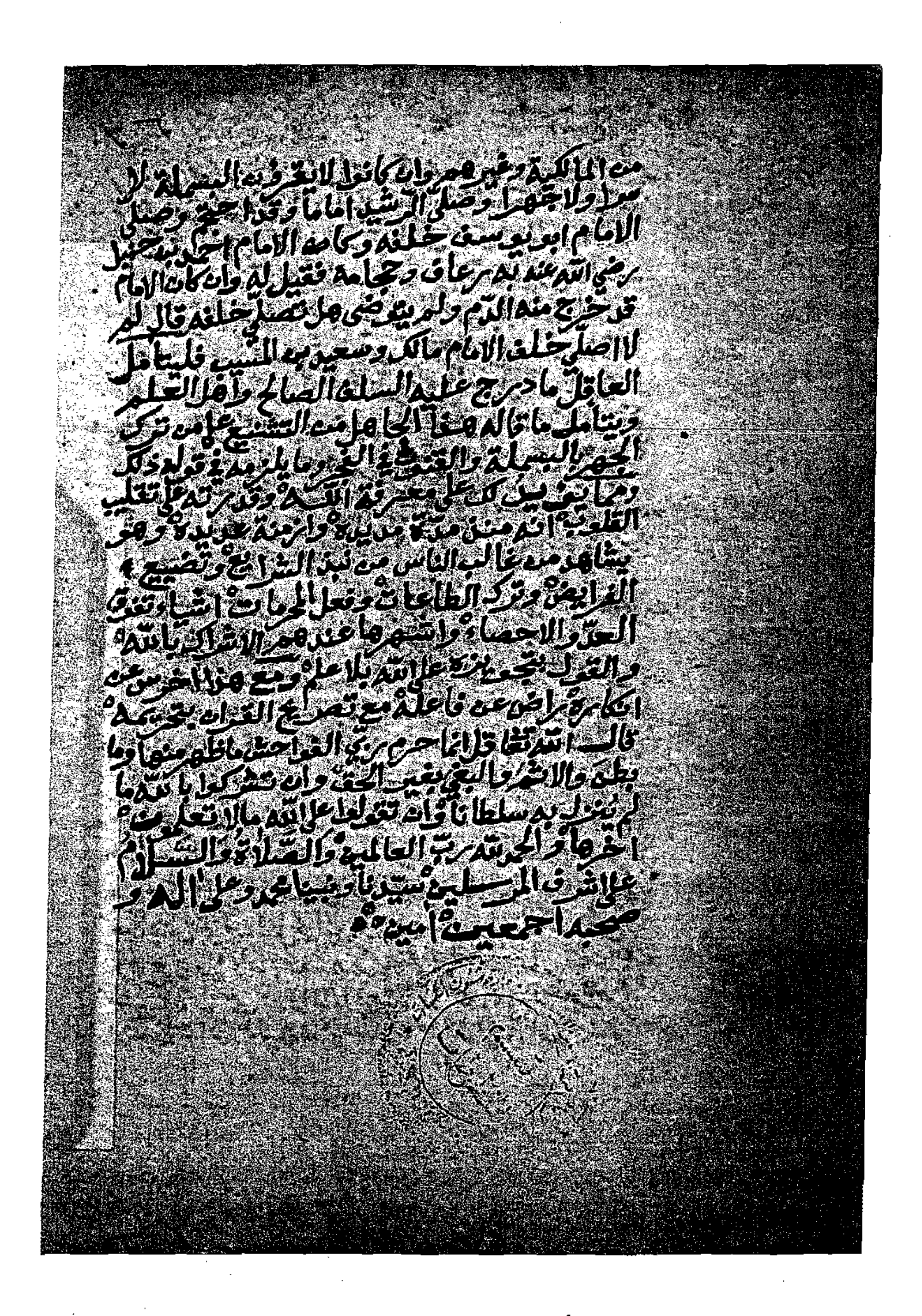
منشورات المكتب الإسلامي

صورة غلاف «المجموع المفيد»
الذي طُبعت ضمنه رسالة «الصيب الهطال»



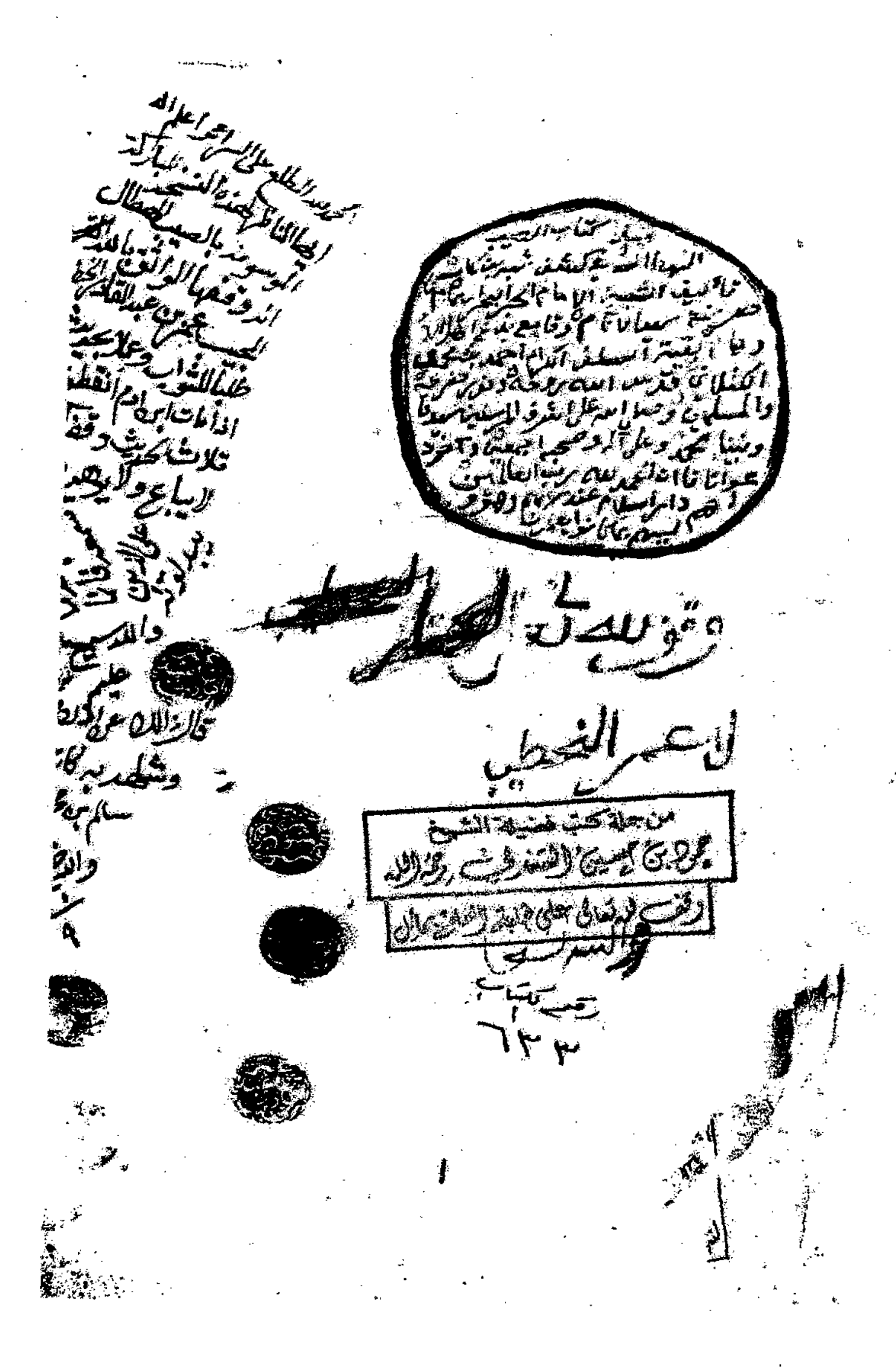
كتاب الصيب الهطال في كشف شبه ابن كمال
تأليف الشيخ الإمام الحبر البحر الهمام ناصر سنة
سيد الأنام وقامع بدع أهل الأوهام
أحمد بن محمد الكتلاني رحمه الله
وجزاه عن المسلمين خيرا
اللهم صل على محمد وآله
وصحبه وسلم
تسليما
آمين

صورة الورقة الأولى من مخطوطة جامعة الإمام



من المالكية وغيرهم وان كانوا لا يقرؤون البسملة لا
سرا ولا جهرا وصلى الرشيد اماما وقد احتجم وصلى
الامام ابو يوسف خلفه وكان الامام احمد بن حنبل
رضي الله عنه يرى من الرعاف والحجامة فقيل له وان كان الامام
قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه قال لهم
لا اصلي خلف الامام مالك وسعيد بن المسيب فليتأمل
العاقل ما درج عليه السلف الصالح واهل العلم
وليتامل ما قاله هذا الجاهل من التشنيع على من ترك
الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر وما يلزمه في قوله ذلك
ومما يغريك على معرفة الفقه وقدرته على تقليب
القلوب انه منذ مدة من سنين وازمنة عديدة وهو
يشاهد من غالب الناس من نبذ الشرائع وتضييع
الفرائض وترك الطاعات وفعل المحرمات اشياء تفوق
العد والاحصاء واشهرها عندهم الاشراك بالله
والقول بحجة على الله بلا علم ومع هذا اخرس عن
انكاره راض عن فاعله مع تصريح القرآن بحرمته
قال الله تعالى قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما
بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما
لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون
اخرها والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على اشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله و
صحبه اجمعين آمين

صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة جامعة الإمام



صورة الورقة الأولى من مخطوطة الشيخ الشغدلي رحمه الله

وتركه الطاعات وفعله المحرمات أشياء تفوق العد والاحصاء ود
شهودها عنده هم الاشراك بالله والقول بتجويزه على الله بلا علم
ومع هذا نحن عنه ساكتون راضون عنه فاعلمه مع تصريح القرآن
بتحريمه قال الله تعالى قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن
والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا
وان تقولوا على الله ما لا تعلمون آخرها والحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين آمين

تمت هذه النسخة المباركة يوم الثلاثاء يوم سادس وعشرين
من الشهر المعظم رمضان الذي هو من شهور سنة الف
وثلاثمائة وثمانية سنين من هجرة سيد المرسلين وخير
الخلق اجمعين بقلم العبد الفقير الى مولاه المترجي
من كل معبود سواه عبيد ربه [illegible]
[illegible]

٦٤

صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة الشيخ الشغدلي رحمه الله

الصيب الهطال

في كشف شبه ابن كمال

«رسالة في الدفاع عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية»

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد الكتلاني
رحمه الله

اعتنى بها
سليمان بن صالح الخراشي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، تفرّد سبحانه بالوحدانية وأبدا للعالمين آثارها، وتوحد بالصمدانية وأشرق في السموات والأرض أنوارها، وأقر بالألوهية من سَكن علوها وسُفلها وقفارها وبحارها، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، فسبحان الله رب العرش عما يصفون، الأحد الذي انفرد بالذات والصفات والأسماء، الذي أحسن كل شيء خلقه وأحاط به علمًا، ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، شهدت مصنوعاته بوحدانيته في الخلق والأمر وانفراده، وجرت أحكامه فيها على وفق مراده، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، القيوم الذي بحكمته وتدبيره أحسن نظام الوجود، القائم بما يحتاج إليه كل موجود، فالهالك مَنْ اتخذ من خلقه معبود، ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾، فسبحانه من إله ملك الوجود بأسره، وتضاءل مَنْ فيه تحت جبروته وقهره، وانقاد خضعانًا لهيبته وأمره، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، نحمده وهو المحمود في جميع أفعاله، على ما أولانا من جوده ونواله، ونشكره على إحسانه وأفضاله، فتعسًا لقوم يعرفون نعمة الله ثم ينكرون، ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ونشهد أن لا إله إلا الله ولا معبود بحق بسواه، فقد ضل مَنْ عدل به المخلوق وساواه، ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ونبيه الذي اختصه بالرسالة واصطفاه، نرجو بها الفوز والنجاة، يوم يُعرف المجرم بسيماه، وتُجادل كل نفس عن نفسها، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، صلى الله عليه بالغدو والآصال، وعلى آله وصحبه الذين هم خير صحب وآل، المُنزل في حقهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وتحققوا بمصداق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾، صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم يُبعثون.

وبعد؛ فإن الله جل جلاله إنما خلق السموات والأرض، وذرأ فيهن بالطول والعرض، للقيام بوظائف العبودية، امتثالًا لأمره اللازم والفرض، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فمن فضله لم يتركهم سدى، لا يُفرقون بين الضلالة والهدى، ولا يعلمون الرشد من الردى، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، فأرسل إليهم رسله الكرام قطعًا للحجة، فرفعوا قواعد المحجة، ومهدوا سبيل التوحيد ونهجه، فاختار الأكثر سبيل الشيطان وفجه، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، وخص سبحانه نوحًا عليه السلام بأول الرسالة، فدعا قومه إلى إخلاص العبادة لمن لا تصلح إلا له؛ فسبُّوه ونسبوه إلى الضلالة، وقابلوه بأقبح المقالة، ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، ثم ختم الرسالة بصفوة النبيين والمرسلين، وخيرته من الخلق أجمعين، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ

مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، فقام بأعباء الرسالة عبده ورسوله المصطفى، فأتى قومه وهم من حفرة النار على شفا، فدعاهم إلى ملة الخليل إمام الحنفا، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، فلما أعلن فيهم بالكلمة العظيمة الشأن، التي خُلقت لأجلها السموات والأرض والإنس والجان، المتضمنة للتوحيد والإيمان، وإبطال عبادة الأصنام والأوثان، أصروا على الكفر والضلال والطغيان، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾، وتمالأوا على الشرك والغي والفساد، ولزموا منهج الآباء والأجداد، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾، ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، أعرضوا عن السميع المجيب، الإله القادر القريب، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فجد ﷺ في الإعلان بالدعوة واستمر، وجاهد مَنْ أعرض عن التوحيد ونفر، لا يُبالون بما ينالون من الأذى والمحنة والضرر، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فلم يزل هو وأتباعه يلقون من قومهم ما يلقون، ويفتنون في ذات الله ويؤذَون، فيصبرون على ذلك ويرضون، ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، إلى أن أذن الله تعالى أن يعلي كلمته وينصر دينه، ويمد في سائر الأقطار

تمكينه، فأمر ﷺ بالمهاجرة إلى المدينة، فهاجر وتتابع على ذلك المهاجرون، ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فشرع الله تعالى لنبيه الجهاد، وفرض عليه قتال أهل الشرك والإلحاد، ووعده النصر والتمكين والله لا يخلف الميعاد، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، فرفع الله قواعد الملة السمحا، وهدم دعائم العوجا وأبدلها صُبحًا، وتوالت الفتوح على أهل الإسلام فتحًا فتحًا، فحقق الله لهم مأمولهم نُجحًا، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فلما أكمل الله تعالى لأمته الدين، وأتم نعمته على المسلمين، أتاه من ربه اليقين، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، فلم تزل أعلام الإسلام في خلافة خلفائه مرفوعة مشهورة، وألوية التوحيد في الأمصار منصوبة منشورة، فهم في سبيل الله لأعدائه يجاهدون، إلى أن مضى منهم كل إلى السبيل، وانقضى أهل ذلك الجيل، فوقع التغيير في الدين والتبديل، بظهور القوم الذين أخبر الصادق أنهم من الدين يمرقون، وحدثت البدع وكثرت أنصارها، وعمت الفتن وربت آصارها، وتمت على ذلك الأعصار أعصارها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، ثم حدثت البنايا على القبور وشيدت رِباعها، وأُسست أصولها فامتدت فروعها، وحلت بكل ناحية من الأمصار جموعها، ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم

﴿مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فما برحت شبه البدع والشرك في القلوب دابة، وعواصف الضلال على مَنْ أراد الله فتنته هابة، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، حتى مضى جملة من القرون، فتفاقم الأمر والحال، وتراكم سحاب المِراء والجدال، ولم تزل طائفة على الحق منصورة، فليسوا على الضلالة يجتمعون، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾، فما زالت في ازدياد تلك الدعوى، حتى حل البدع والشرك عرى التوحيد والتقوى، والأكثر متمسك من ملة آبائه بالسبب الأقوى، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فشرح الله تعالى صدر من وفقه للإسلام وهداه، وأبان له سنن رشده وهداه، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وشهر عن ساق الجد إذ لم يجد بدًا، وأعلن بتكفير من جعل دون ربه ندًا، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾، فأبوا عن ذلك وصدوا، وعارضوا بالباطل وردوا، واجتهدوا في العداوة وجدوا، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، بل أخرجوهم من الديار، وحكموا أنهم من الخوارج والكفار، ولم يكن لهم بالذكر الحكيم اعتبار، ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، فخسر الخسران المبين، مَنْ أعرض عن التوحيد والدين، وباء بالعذاب المهين، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ

مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، فلم تزل تأتي من ورثتهم مكاتبات وتعبيرات، عما هم فيه من الاعتقادات، ودعوة إلى ما انتحلوه من التقليد والعادات، والاعتقاد في الأشجار والأحجار والأحياء والأموات، ويزعمون بذلك أنهم مصلحون، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فنقول -مستعينين بالله، متوكلين عليه، رافعين أكف الضراعة بالدعاء إليه-: اللهم رب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وأرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل.

فأما قول القائل: قال ﷺ: «**ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي ما كان على ما أنا عليه وأصحابي**»[١].

فنقول - وبالله التوفيق -: إن هذا الحديث قد روي من طرق متعددة، ورواه الحاكم في مستدركه[٢]، وخرجه الترمذي[٣] عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ولفظه: قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية،**

---

(١) حديث حسن، انظر تخريجه موسعًا في رسالة «نُصح الأمة في فهم أحاديث افتراق الأمة»؛ للشيخ سليم الهلالي.

(٢) برقم (٤٤٤).

(٣) برقم (٢٦٤١).

ليكونن في أمتي مَنْ يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هي؟ قال: «**من كان على ما أنا عليه وأصحابي**»، فقد وقع ما أخبر به ﷺ من الافتراق في هذه الأمة، بحيث أن تكل الأقلام وتعجز الأنام أن تضبط ما هي عليه من التفرق والاختلاف، وصاروا شِيعًا وأحزابًا، بعد أن كانوا إخوانًا وأصحابًا، هذا من الأدلة الدالة على نبوته ﷺ؛ لأن الأمر وقع كما أخبر، والكلام في ذكر الفرق ومناهجهم يستدعي طولًا، وأبوابًا وفصولًا، فطوينا بساط الكلام عن ذلك خشية الإملال، ولنذكر أصول تلك الفرق على سبيل الاختصار والإيجاز[1]:

الأولى: فرقة الخوارج، ثم القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، ثم الشيعة، ثم المرجئة، ثم الجبرية، والنجارية، والمشبهة. فهؤلاء هم الذين سلكوا أقبح المناهج.

فأما الخوارج؛ فهم عشرون فرقة: المحكمة، وهم الذين خرجوا على علي عند التحكيم، وكفروه، وكفروا عثمان وأكثر الصحابة، وكانوا اثنى عشر ألفًا، وكانوا أهل صلاة وصيام وقراءة، ومنهم البيهسية، قالوا: من وقع على شيء لا يعلمه أحلال أم حرام فهو كافر، ومنهم الأزرقية، أصحاب نافع

(١) وللتوسع؛ تُنظر الكتب المؤلفة في الفرق؛ كـ «مقالات الإسلاميين»؛ للأشعري، و«التنبيه والرد»؛ للملطي، و«الفَرق بين الفِرق»؛ للبغدادي، و«فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام»؛ للدكتور غالب العواجي، و«موقف الصحابة من الفُرقة والفِرق»؛ للأستاذة أسماء السويلم.

بن الأزرق كفروا عليًّا بالتحكيم، وكفروا عثمان وطلحة والزبير وعبد الله بن عباس وعائشة رضي الله عنهم وسائر المسلمين، وحكموا عليهم بالخلود في النار، ومنهم النجدية، أصحاب نجدة بن عامر، ومنهم العاذرية، الذين عذروا الناس في الجهالات إلا في الفروع، ومنهم الأصفرية، أصحاب ابن الأصفر، ومنهم الإباضية، أصحاب عبد الله بن إباض، كفروا عليًّا وأكثر الصحابة، وافترقوا أربع فرق: الحفصية، أصحاب حفص بن أبي المقدام، واليزيدية، أصحاب يزيد بن أنيسة، قالوا يُبعث نبي من العجم بكتاب يكتب في السماء بترك ملة محمد، ويختار ملة الصابئة. والحارثية، أصحاب أبي الحارث الإباضي، خالفوا الإباض في القدر[1]، ومنهم العجاردة، أصحاب عبد الرحمن بن عجرد، وهم أربع فرق، كلها معلومة بالحال، مشهورة بالضلال.

وأما القدرية؛ فأول من قام به معبد الجهني بالبصرة فضلّ وأضلّ أقوامًا، وتتابع على طريقته فئام.

وأما المعتزلة؛ افترقوا عشرين فرقة يُكفر بعضهم بعضًا، وكل حجة تروم لحجة الأخرى نقضًا، ومنهم الواصلة، أصحاب واصل بن عطاء، الذي أظهر الاعتزال وكان يجالس الحسن البصري قبل تظاهره بالضلال، ومنهم الهذيلية، أصحاب الهذيل أحمد بن أبي العلاف، وهو شيخهم ومُقر طريقتهم، ومنهم الإسكافية أصحاب أبي جعفر الإسكافي، ومنهم الجعفرية

(١) قال البغدادي: «قالوا في باب القدر بمثل قول المعتزلة»، (الفَرق بين الفِرق، ص ١٠٥).

أصحاب جعفر بن جعفر بن مبشر بن حريب[1]، ومنهم البشرية أصحاب بشر بن المعتمر، كان من أفاضل علماء المعتزلة، ومنهم الهشامية أصحاب هشام بن عمرو الفُوَطي، وكان هذا من أشد المعتزلة مبالغة في إنكار القدر، ومنهم الصالحية، والحابطية، والحديثية، والعمرية، ومنهم الثمامية أصحاب ثمامة النميري، وكان هذا الشيطان جامعًا بين سخافة الدين وخلاعة النفس، ومن قبيح قوله أنه يقول: اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة يصيرون في الآخرة ترابًا لا يدخلون جنة ولا نارًا، ومنهم الخياطية أصحاب أبي الحسن الخياط، ومنهم الجاحظية أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ، وكان هذا بليغًا ظهر في أيام المعتصم، وأخذ من كتب الفلاسفة، ومنهم الكعبية أصحاب القاسم بن محمد الكعبي[2] تلميذ الخياط، ومنهم الجبائية أصحاب أبي علي الجبائي، من كبار معتزلة البصرة، ومن أقبح مقالاته إنكاره لكلام الباري، يقول: إن الله يخلق كلامه في جسم، والمتكلم ذلك الجسم! ويُنكر رؤية الله في الآخرة، ومرتكب الكبيرة مخلد في النار، ولهم بقايا فرق.

وأما الجهمية؛ فهم أصحاب جهم بن صفوان، وهو شر أهل البدع، وإنما خرجوا من ناحية خراسان في أواخر عصر التابعين في خلافة هشام بن عبد

---

(١) هكذا. والذي في «الفَرق بين الفِرق» (ص ١٦٧): «ذكر الجعفرية منهم: هؤلاء أتباع جعفرين: أحدهما: جعفر بن حرب، والآخر: جعفر بن مبشر». وانظر أخبارهما في «المنية والأمل» (ص ٦٢ - ٦٥).

(٢) الذي في «الفَرق بين الفِرق»، (ص ١٨١): «أبي القاسم عبدالله بن أحمد بن محمود البلخي، المعروف بالكعبي». ومثله في «التبصير في الدين»؛ للإسفراييني (ص ٨٤).

الملك، وقد أشاع التجهم الجعد بن درهم؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري، فلما بلغ قتله الحسن البصري وأمثاله من التابعين شكروا ذلك، وذكر شمس الدين أبو عبد الله ابن أبي بكر بن قيم الجوزية إجماع استحسانهم ذلك، وقد ذكر ذلك في نونيته المشهورة[١]، قوله رحمه الله تعالى:

شكر الضحية كلُ صاحب سنة   لله درّك من أخي قربان

والمشهور من مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل ﷺ وعامة أهل السنة تكفير الجهمية، وهم المعطلة لصفات الرحمن، وقد أخرجهم كثير من السلف من الثنتين والسبعين الفرقة؛ كعبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من أصحاب أحمد[٢].

وأما الشيعة؛ فهم اثنان وعشرون فرقة، يُكفر بعضهم بعضًا، وأصول فرقهم ثلاث فرق: الغلاة، والزيدية، والإمامية.

فالغلاة؛ ثمانية عشرة فرقة، أولهم السبائية، وهم أصحاب عبد الله بن سبأ، ومنهم الكاملية أصحاب أبي كامل، ومنهم الغرابية، ومنهم النصيرية

---

(١) (١/ ٥١) بشرح ابن عيسى.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمأثور عن السلف والأئمة إطلاق أقوال بتكفير الجهمية المحضة، الذين يُنكرون الصفات، وحقيقية قولهم: أن الله لا يتكلم ولا يُرى ولا يباين الخلق ولا له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا حياة، بل القرآن مخلوق وأهل الجنة لا يرونه كما لا يراه أهل النار وأمثال هذه المقالات»، (الفتاوى: ٣/ ٣٥٢)، وتُنظر رسالة: «إجماع أهل السنة النبوية على تكفير المعطلة الجهمية».

والإسحاقية، القائلين بالحلول في علي، ومنهم الذمامية[١] القائلين بألوهية علي، ومنهم الإسماعيلية ويلقبون بالقرامطة، وباقي فرق الشيعة وروافضهم كثيرة.

وأما الزيدية؛ الذين ينسبون أنفسهم إلى طريقة زيد بن علي زين العابدين، وهم ثلاث فرق، ومنهم الجارودية أصحاب أبي الجارود، والسلمانية، والبترية.

والإمامية؛ فقالوا بالنص الجلي على إمامة علي، وكفروا الصحابة ووقعوا في أعراضهم.

وأما المرجئة؛ قد افترقوا خمس فرق: اليونسية أصحاب يونس النمري، والعبدية أصحاب غسان الكوفي، والتُومنية أصحاب أبي معاذ التومني، ومن مقالاتهم أن السجود للصنم ليس كفرًا بل علامة على الكفر، وتبعهم ابن الراوندي وبشر المريسي قبحهم الله وقبح مَنْ سلك سبيلهم. وأما الجبرية؛ وهم الذين يقولون بإسناد فعل العبد إلى الله، وليس للعبد اختيار ولا مشيئة، ويقولون بحدوث علمه تعالىٰ، ونفي رؤيته في الآخرة، وبخلق القرآن، ووافقوا الجهمية في أن لا قدرة للعبد يكتسب بها، فلذا لا يقولون بخلود أحد في النار ولا في الجنة، إلى غير ذلك من مقالاتهم القبيحة. وأما النجارية، أصحاب محمد بن الحسين النجار[٢]، وهؤلاء يوافقون المعتزلة على نفي

---

(١) في «الفَرق بين الفِرق»، (ص ٢٥١): «الذَميَّة».

(٢) في «الفَرق بين الفِرق» (ص ٢٠٧)، و«التبصير في الدين» (ص ١٠١): «الحسين بن محمد النجار».

الصفات وحدوث الكلام ونفي الرؤية، وفرقهم ثلاث: البرغوثية والزعفرانية والمستدركة، وأكثر هؤلاء يكفرون مَن لم يقل بخلق القرآن.

وأما المشبهة؛ شبهوا الله تعالى بالمخلوقات ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، وهم فرقة واحدة؛ لأنهم وإن افترقوا؛ فالتشبيه بجمعهم، فهذه فرق أهل الأهواء والضلال، وشيع الغواة والضلال، الذين مرقوا من الملة الحنيفية، مروق السهم من الرميّة، فليس لهم حظ ولا نصيب من الدين، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾. وإنما ذكرنا هذه الفرق الضالة ليتبين حال أهل التوحيد من أهل الزيغ والجهالة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، فهؤلاء الفرق المذكورة ليسوا على دين قويم، ولا هدى مستقيم، مع أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويُصلون ويصومون ويدّعون الإسلام، ويستقبلون القبلة، ويدخلون المساجد، إلى غير ذلك من أنواع العلوم والأعمال التي ليست بخفية، ومع هذا أجمع أهل السنة والجماعة على أنهم على غير ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه من الهدى ودين الحق؛ لمنافاتهم الإيمان بالرسالة.

وأما هؤلاء المشركون القبوريون، وإن كانوا أخذوا ببعض هذه الطرائق في الاعتقادات، ووافقوهم في مسمى الإسلام، فهم أعظم ذنبًا وأكبر جريمة؛ لكونهم يتبركون بالأشجار والأحجار والقبب والأحياء والأموات، ويدّعونها، وينحرون عندها، وينذرون لها، ويعتمدون عليها، ويخافون ويرجون منها، ويهتفون باسمها، ويطلبون منها ما لا يقدر عليه إلا الله، ويصرفون لها ما لا يجوز صرفه إلا لله، إلى غير ذلك مما يطول ذكره،

فهؤلاء المشركون قطعًا أعظم ذنبًا وأبعد صوابًا وأضل منهاجًا، وليسوا على ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه؛ لمخالفتهم ما جاء به ﷺ من التوحيد والإخلاص؛ لأن الفرق المذكورة أهل بدع تنافي ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من المتابعة، وجنايتهم هذه على الرسالة، وأما هؤلاء المتعلقون بالأشجار والأحجار والأحياء والأموات أهلُ شرك ينافي ما عليه رسول الله ﷺ من التوحيد والإخلاص، وجنايتهم على الألوهية والشرك أعظم من البدعة؛ لأنه أعظم ذنب عصي الله به على الإطلاق بالكتاب والسنة والإجماع، فلهذا رتب عليه من العقوبات في الدنيا ما لم يرتبها على غيره من الذنوب، من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته إلا بالتوبة منه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، والمقصود أن المبتدع شارع من الدين ما لم يأذن به الله، وأن المشرك عابد غير الله، فأقبح القبيح وأظلم الظلم تشريك العاجز الفقير بالذات مع القادر الغني بالذات، ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب نفي الشريك مع الله، وإخلاص العبادة كلها لله وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل، كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره؛ فقد أشرك ذلك الغير بمن لا شريك له ولا ند له، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فصل

وأما الفرقة الناجية؛ فهم أهل الإسلام والإيمان، الذين تمسكوا بالكتاب والسنة، وجردوا الوحدانية لله ﷻ في الربوبية والألوهية، وأفردوه بأقوالهم وأعمالهم ونياتهم، فهو ربهم وإلههم وغاية مطلوبهم ومقصودهم، فلا تسكن قلوبهم إلا إليه، ولا تطمئن إلا بذكره، ولا تأنس إلا به، ولا تتنعم إلا بالتوجه إليه، ولا صلاح ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال، فلا رب لهم سواه، ولا يعبدون إلا إياه، وهم الذين جردوا المتابعة لنبيهم ﷺ، فلا يطيعون إلا أمره، ولا يدينون إلا بشرعه، ولا يقتدون إلا بهديه، ولا يحلون إلا ما أحل، ولا يحرمون إلا ما حرم، ولا يحبون إلا ما أحب، ولا يبغضون إلا ما أبغض، ولا يوالون إلا ما والى، ولا يعادون إلا من عادى، إلى غير ذلك مما يقتضيه موجب الإيمان بالرسالة؛ لأن دينهم مبني على أصلين: **الأول**: لا يعبدون إلا الله، **والثاني**: لا يعبدونه إلا بما شرع، وهما الإخلاص والصواب اللذان لا يقبل الله عمل عامل إلا بهما، وبهما ابتلى الله عباده، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾، قال الفضيل بن عياض رحمهما الله تعالى: أي أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، إلا أن يكون خالصًا صوابًا. وهما هيكل الدعوة النبوية وروحها ولبها والغاية منها، بل الغاية من إيجاد العالم بأسره.

والمقصود: التنبيه على أصل دين الفرقة الناجية، الذين صدقوا في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا وتعظيمًا وإنابة وإكرامًا وذلًا وخضوعًا وخوفًا ورجاء وتوكلًا، هكذا فسره أهل العلم، وأجمعوا على أن الإله هو المعبود، فلهذا لا يدعون إلا الله، ولا ينحرون إلا له، ولا ينذرون إلا له، ولا يخافون ولا يرجون إلا منه، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا ينيبون إلا إليه، ولا يستعينون ولا يستغيثون إلا به، ولا يصرفون شيئًا من حقه لغيره، فمن صرف شيئًا من خالص حقه لغيره وخصائص ألوهيته لغيره؛ فقد أشرك وجعل مع الله إلهًا آخر، وقد بين الله سبحانه التوحيد في كتابه أعظم بيان، وأقام حجته على عباده، ونهى عن الشرك وحسم مواده، وكذلك عبده ورسوله محمد ﷺ حقق التوحيد، ودعا إليه، وحمى جنابة، ونهى عن الشرك، وسد الذرائع الموصلة إليه؛ من الأقوال والأعمال والنيات، حتى في الألفاظ اليسيرة؛ كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده»[(١)]، وقول أناس: يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله** ﷺ»[(٢)]، وقول وفد بني عامر: أنت سيدنا،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم ١٣٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٢٥٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم ١٠٩٧).

فقال: «**السيد الله تبارك وتعالى**»[١]، فما الظن بما هو أكبر من ذلك من صرف أنواع العبادة لغيره؛ كالدعاء والذبح وغير ذلك مما لا يجوز صرفه إلا لله، وطلب ما لا يقدر عليه إلا الله؟!

إذا فهمت ما ذكرنا؛ عرفت أن المبتدع من تعبد بعلم أو عمل أو اعتقاد لم يشرعه الله في كتابه، ولم يأت به رسوله ﷺ، ولم يدرج عليه أصحابه ﵃، ولو ادعى أنه من الفرقة الناجية، وانتسب الله السنة وإلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فهذا تكذبه شواهد الامتحان، إذ لم يثبت قطعًا عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه بطريق صحيح ولا ضعيف أنهم اتخذوا القباب والمشاهد، وأوقدوا فيها السُرُج، ولثموا ترابها، وركّبوا عليها التوابيت، وكسوها بالبرود والديباج، إلى غير ذلك من أنواع البدع التي يفعلها الخارجون عن وفق الشريعة، وهديه الذي كان عليه وأصحابه بل الثابت الصحيح أنه جاء بهدمها وإبطالها؛ كقوله ﷺ في حديث عمرو بن عبسة: «**بُعثت بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يُوحد الله لا يُشرك به شيئ**»[٢]، وقد أمر عليًّا ﵁ أن لا يدع تمثالًا إلا طمسه ولا قبرًا مشرفًا إلا سواه، وأمر علي ﵁ أبا الهياج بذلك[٣]، وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن كل عمل جارٍ تحت أحكام الشريعة، فما كان موافقًا لها فهو مقبول، وما كان خارجًا عن ذلك فهو مردود، وإن تقاضته الطباع، وتحالته النفوس؛ لما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٦٣٥٠)، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (برقم ٤٩٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٩٦٩).

رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ «**مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١]، وفي رواية لمسلم: «**مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا رد**»[٢]، وهذا الحديث أصل من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث عمر ﵁: «**إنما الأعمال بالنيات**»[٣]، ميزان للأعمال في باطنها، وعرفت أن المشرك مَنْ عبد مع الله غيره، إذ الشرك يقتضي المشاركة، وعرفت أن الموحد مَنْ كان على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو مَنْ عبد الله وحده بما شرعه في كتابه وعلى رسوله ﷺ في كل زمان ومكان.

فصل

وأما قول القائل: وجدنا مذهبًا يقال له وهابيًا، وهو الذي ذهب إليه محمد بن عبد الوهاب، ويزعم أنه مذهب خامس، إلى غير ذلك من أقاويله الباطلة التي لا يقولها من له أدنى عقل، فضلًا أن يكون له دين.

فنقول: هذا القائل مَنْ هو حتى يُلتفت إليه؟ ويُعول في أمر الدين عليه؟ إن هو إلا رجلٌ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، فلفرط حمقه تكلم بما لا يعقله، ولو صحا عقله وأوتي رشده؛ لعلم أن الحيف ظلم، والكذب حرام، كيف وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨).
(٣) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾، ففرض تعالى في الآية الأولى القيام بالعدل والتكلم بالصدق، ونهى عن الحيف والجور في كل مقام ومقال، ولو أن الحاكم بالعدل والمتكلم بالصدق يقضي على نفسه ويلزمها حجة لمن يبغض؛ فلا يحمله بغضه أن يحيف في قوله وحكمه. وحرّم تعالى في الآية الأخرى التكلم بالكذب من حيث هو. أو لم يستحِ هذا المتكلم من ربه أن يتكلم بهذا لكبر سنه، ولانتسابه إلى الطُوع؟ ولكن الأمر كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، ومَنْ تأمل قصص الأولين والآخرين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين، وما جرى لهم مع قومهم من الرد والأذى والتكذيب لما أن دعوهم إلى الله وإلى طاعته، وترك ما استورثوه من الأديان الباطلة والعادات الفاسدة، فلا أستكثر على هذا القائل ما قاله، لقد قيل لرسول رب العالمين وصفوة الخلق أجمعين: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب، وقيل له: جاءنا بما لا نعرف، وقيل: زدت فيها يا محمد، قال: «**بل جئت بها بيضاء نقية**»[1]، فإذا قيل هذا لرسول رب العالمين، فمن يطمع بالسلامة بعده؟ فكيف وقد قال له ورقة بن نوفل: لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي وعودي. مع أنهم يعلمون صدقه وأمانته، وأن ما جاء به الحق، ولكنهم كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٥١٩٥)، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (١٧٧).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾، وقد سلّى الله تعالى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين بقوله كذلك: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾، ونظائر هذا أكثر من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذكر، ومَنْ تأمل ما قدمنا من أصلي الدين وقاعدتيه المجمع عليهما على أن الله لا يقبل عمل عامل إلا بهما؛ وهما الإخلاص والمتابعة، ورأى ما عليه غالب الناس من التعلق بالأشجار والأحجار والأحياء والأموات، وصرف حق الله تعالى إليها وتعبدهم بما لم يأت به شرع، ولا عندهم فيه دليل؛ عرف أن ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هو الذي دعا إليه النبي ﷺ، من الدين القويم والمنهج المستقيم الذي لا يخفى إلا على مَنْ هو أعمى البصيرة، ضال أو معاند محروم، باهت في الجدال، ومحال أن يحصل اليقين والبصيرة إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكيف ينال الهدى والإيمان مَنْ زعم أن ذلك لا يحصل من القرآن؟ إنما يحصل من الآراء الفاسدة التي هي زبالة الأذهان، تالله لقد مُسخت عقولٌ هذا غاية ما عندها من التحقيق والعرفان. وهذه المتابعة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هي حقيقة دين الإسلام، الذي افترضه الله تعالى على الخاص والعام، وهو حقيقة الشهادتين الفارقتين بين المؤمنين والكفار، والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار؛ إذ معنى الإله هو المعبود المطاع، وذلك هو دين الله الذي ارتضاه لنفسه وملائكته ورسله وأنبيائه، فبه اهتدى المهتدون، وإليه دعى المرسلون، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ

وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾، فلا يُتقبل من أحد سواه من الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾. شهد الله تعالى أنه دينه قبل شهادة المخلوقين، وأنزلها تتلى إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، جعل أهله هم الشهداء على الناس يوم القيامة؛ لما فضلهم به من الأقوال والأعمال والاعتقادات التي توجب إكرامه، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾، وفضله على سائر الأديان، فهو أحسنها حكمًا وأقومها قيلًا، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، وكيف لا يميز مَنْ له بصيرة بين دين أسس على تقوى من الله ورضوان، وارتفع بناؤه على طاعة الرحمن، والعمل بما يرضاه في السر والإعلان، وبين دين أسس على شفا جرف هار فانهار بصاحبه في النار، أسس على عبادة الأصنام والأوثان، والالتجاء إلى الصالحين وغيرهم من الإنس والجان، عند الشدائد والأحزان، وصرف منح العبادة لغير الملك الديان، ورجاء النفع والعطاء والمنع، ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلًا عن غيره من نوع الإنسان، ودعوى التصرف في الملك لصالح رميم في التراب والأكفان، قد عجز عن رفع ما حل به من أمر الله، فكيف يدفع عمن دعاه من بعيد الأوطان، أو فاسق يشاهدون فسقه وفجوره فهو أبعد الناس من الرحمن، أو ساحر يريهم من سحره ما يحير به

الأذهان، فيظن المخذولون أنها كرامة من الله، وإنما هي مخاريق الشيطان، تبًا لهم سدوا على أنفسهم باب العلم والإيمان، وفتحوا عليها باب الجهل والكفران، قابلوا خبر الله بالتكذيب وأمره بالعصيان، أخبر بأن الهدى والنور في كتابه، قالوا ذاك فيما مضى من الزمان، وأمرهم باتباع ما أنزل إليهم من ربهم ولا يتبعون من دونه أولياء، فقالوا لا بد لنا من ولي غير القرآن، إن جئتهم بكتاب الله قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه أهل الزمان، أو جئتهم بسنة رسوله قالوا: خالفها الشيخ فلان! وهو أعلم منا ومنكم، فاعتبروا يا أولي الإيمان، عمدوا إلى قبور الأولياء والصالحين، فبنوا عليها البنيان، ونقشوا سقوفها والحيطان، وحلوها بالغالي من الأثمان، وألبسوها ألوان الستور الحسان، وجعلوا لها السدنة والخدم فعل عباد الأوثان والصلبان، ونذروا لمن فيها وقربوا لها القربان، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا في كشف الكروب وغفران الذنوب ودخول الجنان، فبالله صف لي شرك المشركين، هل هو بعينه إلا هذا، كما نطق به القرآن في سورة يونس والزمر وغيرهما من محكمات الفرقان؟ إن غرك أن الأكثر عليه؛ فقد حكم الله عليهم بأنهم أضل سبيلًا من الأنعام، إذ استبدلوا الشرك بالتوحيد والضلال بالهدى والكفر بالإسلام، أو غرك أن بعض مَنْ تعظمه قد رأى شيئًا من هذا أو قاله، فالخطأ جائز على مَنْ سوى الرسول من الأنام، ولم تزل الحال على ما وصفنا من الأمور العظام، منتشرًا في أهل البلدان المنتسبين إلى الإسلام، المارقين منه كما تمرق الرميّة من السهام، إلى أن أزال الله تلك الظلمات وكشف البدع والضلالات، ونفى الشبه والجهالات، وتصديق بشارة رب الأرض

والسموات، في قوله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها**» رواه أبو داود[١]، والحاكم[٢]، والبيهقي في المعرفة[٣]، وإسناده صحيح، على يد من أقامه هذا المقام، نعني به خلف السلف الكرام، المتبع لهدي سيد الأنام شيخ الإسلام: محمد بن عبد الوهاب، أحسن الله له المآب، وضاعف له الأجر والثواب، فدعا إلى الله ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، وقام بأمر الله والدعوة إليه، فعظم على الأكثرين وأنفوا استكبارًا، ولم يثنه ذلك عن أمر الله؛ حتى قيّض الله له أعوانًا وأنصارًا، وصنّف رحمه الله التصانيف في توحيد دين المرسلين، والرد على مَنْ خالفه من المشركين، وكان رحمه الله كما قال فيه بعض أهل الفطر السليمة، والعقول الصحيحة: لقد سافرنا الأقاليم، وعرفنا الناس وأذواقهم، وأشرفنا على غالب أحوالهم، فلم نر مثل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، علمًا وعملًا وقيامًا في حق الله تعالى بالدعوة إليه، وغضبًا إذا انتهكت حرماته، من أزكى الناس عقلًا، وأصدقهم قولًا، وأشدهم عزمًا، وأصوبهم متابعة لسنة محمد ﷺ، وأيم الله، ما رأينا في عصرنا هذا مَنْ يوافق الطريقة المحمدية وسننها، في أقواله وأفعاله، مثل هذا الرجل، بحيث يشهد العقل الصحيح والفطرة السليمة أن هذا هو الاتباع حقيقة، وبعد ذلك كله فقول الصدق فريضة، فلا ندعي فيه العصمة عن الخطأ، ولا ندعي كماله لغايات

---

(١) برقم (٤٢٩١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (برقم ٥٩٩).
(٢) برقم (٨٥٩٢).
(٣) (١/ ١٢٤).

الخصائص المطلوبة، فقد تكون في بعض الناقصين خصوصية. مقصوده: لا يتم الكمال إلا بتلك الخصوصية، وفي غيره أكمل مما هي فيه، بمعنى أن ذلك متصف بحقائقها، لكن لا يعرف قدر هذا الرجل إلا مَنْ عرف دين الرسول ﷺ، ووقع من قلبه بموقع، فمن كان كذلك عرف ما قام به هذا الرجل من بين أظهر عباد الله، يُقوّم معوجهم، ويُصلح فسادهم، ويُلم شعثهم، ويُجدد لهم ملة أبيهم إبراهيم، ودين نبيهم محمد ﷺ، ويأمرهم بأن يكونوا في الإسلام إخوانًا، وعلى البر والتقوى أعوانًا، جهد إمكانه، في هذا الزمان المظلم، الذي أغرب فيه الدين، وجهلت فيه السنن، وظهرت البدع، وصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، ونشأ على ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطُمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، فمن المعلوم بالضرورة أن مَنْ قام بهذا النور في هذه الظلمات لا يوصف خطره، ولا يعرف قدره، وأيم الله، إنه لمن الناصحين لله ولكتابه ولرسوله وللناس أجمعين، وإنما الغشاش لكل أمة: إمام المضلين، وشيخ الجاهلين، الذي قد جاوز السبعين، وأطاع اللعين، في تزيين دعوة الأحياء والأموات والطين والشياطين، واستزلهم بأحداث بدعية، وأغواهم بأوضاع جاهلية، فقال: هذا والله هو حقيقة الإسلام، ولأجلها خُلقت الأنام، وما هي إلا أضغاث أحلام، وعقول سالبُها باريها، فأنفذ فيها أحكام، ومن العجب العجاب، أنكم تعيشون مدة أعماركم، وبين أظهركم أناسٌ كما أنكم بين أظهرهم، فيفعلون من مخالفة دين الإسلام أشياء ما يظفر الشيطان بمثلها إلا عند أمثالهم، ويفعلون أنواعًا من المحرمات التي لم يسبقهم بها غيرهم،

وينبذون الشرايع ويعطلون أحكامها، ويضيعون الفرائض، إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال التي تفوق العد والإحصاء، وتعجز العقول عن إدراكها وتصويرها، وتكل الألسن عن نعتها وتعبيرها، فضلًا عن كتابتها وتسطيرها، وأنتم تشاهدون هذه وساكتون عن إنكارها، راضون عن فاعلها، بل أنتم الآمرون بها، الموالون عليها، الناصرون لها، الذابون عنها وعن فاعلها، ومع هذا كله ترون أنكم من الناصحين لهم ولأنفسهم، وأن من دعاهم إلى فعل ما يقربهم من الجنة، وترك ما يقربهم من النار، صار عندكم غشاشًا! سبحان الله! ما أعظم هذا الجهل! ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولله در القائل(١) حيث يقول:

يا فرقة جهلت نصوص نبيها	وقصوده وحقائق الإيمان
فسطوا على أتباعه وجنوده	بالغي والتكفير والطغيان
والله ما غضبوا إذا ما انتُهكت	محارم ربهم في السر والإعلان
حتى إذا ما قيل في الوثن الذي	يدعونه ما فيه من نقصان
فأجارك الرحمن من غضبٍ ومن	شتمٍ ومن شجٍ ومن عدوان
وأجارك الرحمن من ضربٍ و	تغريبٍ ومن سبٍ ومن سجّان
والله لو عطلتَ كل صفاته	ما قابلوك ببعض ذي العدوان
والله لو خالفتَ نص رسوله	نصًا صريحًا واضح التبيان

(١) ابن القيم في «النونية»، (٢/ ٣٥٤ و٢٦٥ - ٢٦٦ بشرح ابن عيسى).

وتبعتَ قول شيوخهم أو غيرهم ... كنتَ المحقق صاحب العرفان
حتى إذا خالفتَ آراء الرجال ... لسنة المبعوث بالقرآن
نادوا عليك ببدعة وضلالة ... قالوا وفي تكفيره قولان
قالوا تنقصت الكبار وسائر ال ... علماء بل جاهرت بالبهتان
هذا ولم نسلبهم حقًّا لهم ... ليكون ذا كذب وذا عدوان
وإذا سلبت صفاته وعلوه ... وكماله جهرًا بلا كتمان
لم يغضبوا بل كان ذلك عندهم ... عين الصواب ومقتضى الإحسان
وإذا ذكرت الله توحيدًا رأيت ... وجوههم مكسوفة الألوان
بل ينظرون إليك شزرًا مثلما ... نظر التيوس إلى عصا الجوبان
وإذا ذكرت بمدحة شركاءَهم ... يتباشرون تباشر الفرحان
والله ما شموا روائح دينه ... يا زكمة أعيت طبيب زمان

فصل

والمقصود؛ أن ما نُسب إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من الأقوال الباطلة، الموجبة للصد عن سبيل الله، كذبٌ وبهتان، وظلمٌ وعدوان، وأنه رحمه الله دعا إلى ما جاء به النبي ﷺ من الدين القويم، والحق المبين، وإلى ما كان عليه عصابة الإيمان، وعسكر القرآن، وجند الرحمن، أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأحسنها بيانًا، وأصدقها إيمانًا، وأعمقها نصيحة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، ثم التابعون لهم بإحسان، أولئك أصحاب محمد ﷺ، ثم التابعون لهم بإحسان.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة[1]؛ من الإيمان بالقدر خيره وشره، ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، بل يعتقد ويؤمن بأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه، ولا يُحرف الكلم عن مواضعه، ولا يُلحد في أسمائه وآياته، ولا يكيف، ولا يمثل صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سميّ له، ولا كفو له، ولا ند له، ولا يُقاس بخلقه، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا، فنزه سبحانه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل، وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ مع اعتقاده اعتقاد الفرقة الناجية، وسط في فرق الأمة، كما أنهم وسط في الأمم، فهم وسط في باب صفاته تبارك وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وبين أهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين القدرية والجبرية، وهم وسط في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من قدرية الخوارج وغيرهم، وهم وسط في باب الإيمان والدين بين

---

(١) يلخص المؤلف عقيدة الشيخ محمد من الرسالة التي كتبها ابنه عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب - رحمهم الله - عند دخولهم مكة مع الإمام سعود بن عبدالعزيز - رحمهما الله -، عام ١٢١٨هـ. انظرها في «الدرر السنية» (١/ ٢٢٢ - ٢٤١). وقد أبان الشيخ محمد نفسه عن عقيدته في رسائله الكثيرة؛ كرسالته لأهل القصيم، ورسالته للسويدي العراقي. انظرها وغيرها في «مؤلفات الشيخ الإمام» (القسم الخامس - الرسائل الشخصية).

الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية، وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض والخوارج، ويعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأنه تكلم به حقيقة، وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده ﷺ، ويؤمن بأن الله فعال لما يريد، ولا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد لأحد عن القدر المقدر، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور.

وكان رَحِمَهُ اللهُ مما يعتقد: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت؛ فيؤمن بفتنة القبر ونعيمه، وبإعادة الأرواح إلى الأجساد، فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا، وتدنو منهم الشمس، وتنصب الموازين، وتوزن بها أعمال العباد، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾، وتُنشر الدواوين؛ فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله. ويؤمن بحوض نبيه ﷺ بعرصة القيامة، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، مَنْ شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا. ويؤمن بأن الصراط منصوب على متن جهنم يمره الناس على قدر أعمالهم، ويؤمن بشفاعة النبي ﷺ، وأنه أول شافع وأول مُشفّع، ولا يُنكر شفاعات النبي ﷺ إلا أهل البدع والضلالات، ولكنها لا تكون إلا بعد الإذن والرضى؛ كما قال تعالى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقال تعالى ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، وهو لا يرضى إلا التوحيد، ولا يأذن إلا لأهله، وأما المشركون فليس لهم من

الشفاعة نصيب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، ويؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما اليوم موجودتان لا يفنيان، وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامّون في رؤيته، ويؤمن بأن محمدًا ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته، وأن أفضل أمته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى، ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان، ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم، ويتولى أصحاب رسول الله ﷺ، ويذكر محاسنهم، ويترضى عنهم، ويستغفر لهم، ويكف عن مساويهم، ويسكت عما شجر بينهم، ويعتقد فضلهم؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ويترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات المبرآت من كل سوء، ويقر بكرامات الأولياء وما لهم من المكاشفات، إلا أنهم لا يستحقون من حق الله شيئًا، ولا يُطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا مَنْ شهد له رسول الله ﷺ، ولكن يرجو للمحسن ويخاف على المسيء، ولا يُكفر أحدًا من أهل الإسلام بذنب، ولا يخرجه من دائرة الإسلام، ويرى الجهاد والحج ماضٍ مع كل إمام برًا كان أو فاجرًا، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة، والجهاد ماضٍ منذ بعث الله محمدًا ﷺ إلى أن يُقاتل آخر هذه الأمة الدجال، لا يُبطله جور جائر ولا عدل عادل، ويرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم، ما لم يأمروا بمعصية الله، ومَنْ ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار

خليفة وجبت طاعته، وحرم الخروج عليه، ويرى هجر أهل البدع ومباينتهم، ويعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة، وكل متسمٍ بغير الإسلام والسنة مبتدع، وأن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد الجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وهو بضعة وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ويرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة، إلى غير ذلك من عقائد أهل السنة والجماعة التي يطول ذكرها.

وأما مذهبه الذي ينتحله في الفروع؛ فهو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، ولا يُنكر على أحدٍ أخذ بمذهب الأئمة الأربعة، دون غيرهم؛ لعدم ضبط مذهب الغير، ولا يدّعي رتبة الاجتهاد المطلق، إلا أنه في بعض المسائل إذ أصبح عنده نص جلي من كتاب أو سنة، غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه، وقال به أحد الأئمة الأربعة؛ أخذ به وترك مذهب الحنابلة، وقد قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «أجمع أهل السنة على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»، وصح عنه أنه قال: «إذا رويت عن رسول الله ﷺ ولم آخذ به فاعلموا أن عقلي قد ذهب»، وصح عنه أنه قال: «إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي الحائط»، وصح عند رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: «لا قول لأحد مع سنة رسول الله ﷺ»[1]، وهذا وإن كان لسان الشافعي فهو لسان الجماعة كلهم، ولسنا الآن بصدده[2]، ولا

(١) ذكر هذه الأقوال الأربعة عن الشافعي: ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٦٣).

(٢) انظر أقوال الأئمة في الحث على إتباع السنة وذم تقليدهم أو غيرهم في: «إيقاظ همم أولي الأبصار»؛ للفلاني، و«المؤمل في الرد إلى الأمر الأول»؛ لأبي شامة، و«إيقاظ =

يفتش عن أحدٍ في مذهبه، ولا يعترض عليه، إلا إذا اطلع على نص جلي مخالف لمذهب أحد الأئمة، وكانت المسألة مما يحصل بها شعارًا ظاهرًا؛ كإمام الصلاة، فيأمر الحنفي والمالكي مثلًا بالمحافظة على نحو الطمأنينة في الاعتدال والجلوس بين السجدتين؛ لوضوح الدليل على ذلك، بخلاف جهر الإمام إذا كان شافعيًا بالبسملة، فلا يأمره بالإسرار، فشتان بين المسألتين.

ثم إنه رحمه الله تعالى يستعين على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المعتبرة، من أجلّها لديه وأصحها: تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن متهم، وكمختصره لابن كثير الشافعي، وكتفسير البغوي، وهو مختصر من تفسير الثعلبي[1]، وتفسير عبد الرزاق وعبد بن حميد، وتفاسير الواحدي: البسيط والوسيط والوجيز، وفيها فوائد جليلة، وفيها غث من المنقولات؛ نعني تفاسير الواحدي[2]، وكالبيضاوي والخازن والحداد والجلالين، وغيرهم.

= الهمة لاتباع نبي الأمة»؛ لخالد العجمي، و«الطريقة المثلى في الإرشاد إلى ترك التقليد واتباع ما هو الأولى»؛ لأبي الخير خان، ومقدمة «صفة صلاة النبي ﷺ»؛ للألباني.

(١) قال شيخ الإسلام في: الفتاوى (١٣/ ٣٥٤): «والبغوى تفسيره مختصر من الثعلبى، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة».

(٢) قالها شيخ الإسلام في: الفتاوى (١٣/ ٣٨٦): «وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها». وللفائدة: قال الدكتور محمد الخضير في مقاله: «القيمة العلمية لتفسير الواحدي» المنشور في موقع: «ملتقى أهل التفسير» على الشبكة العنكبوتية: «ومع هذه القيمة العلمية العلمية لهذا التفسير الجليل القدر، فإنه لا يخلو من ملاحظات ومآخذ يمكن إجمالها فيما يلي:
أولًا: انتهاجه طريقة المتكلمين المنتسبين للأشعري في تفسير الآيات العقدية، =

. . . .

= مخالفًا بذلك طريق السلف الصالح، ذوي المذهب الأعلم والأحكم والأسلم، وهم من أشاد بهم الواحدي والتزم تقديم أقوالهم في تفسير القرآن، بيد أنه في هذه الآيات وتلك القضايا لم يلتزم ما التزم به، ونحا غير طريقتهم، وسلك دربًا غير دربهم.
ثانيًا: ذكره لبعض الروايات الإسرائيلية المنكرة، التي هي عيب كثير من كتب التفسير، وقد كان فيها متأثرًا بتفسير شيخه الثعلبي، وإن كان أقل منه بكثير في هذا الباب، إلا أنه لم يسلم، مع أنه قد وعد في مقدمة كتابه بالإعراض عنها، وعن مثلها، فقال: «فأما الأقوال الفاسدة، والتفسير المرذول الذي لايحتمله اللفظ، ولا تساعده العبارة، فمما لم أعبأ به، ولم أضيع الوقت بذكره». لكنه ﷺ أخل بما التزم، ولم يوف بالشرط على الوجه الذي ذكر.
ثالثًا: إيراده الروايات الموضوعة والضعيفة، كالتفسير الذي رواه عطاء عن ابن عباس، وقد بينت فيما سبق ضعف هذا التفسير، وضعف غيره من المرويات التي اعتمدها عن ابن عباس دون تمحيص أو بيان، كرواية الكلبي والعوفي.
رابعًا: الإطالة الواضحة في المباحث اللغوية والنحوية بما يخرج الكتاب عن مقصوده الأعظم، وهو تفسير كلام الله، ولذا ثرب السيوطي عليه قائلًا: «فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته، كالزجاج والواحدي في البسيط».
وقبل السيوطي عد الزركشيُّ تفسير البسيط مما غلب عليه شرح الغريب حيث يقول: « . . . وقد أكثر الناس فيه -أي التفسير- من الموضوعات، مابين مختصر ومبسوط، وكلهم يقتصر على الفن الذي يغلب عليه، فالزجاج والواحدي في البسيط يغلب عليهما الغريب . . . ».
خامسًا: كثرة النقول وطولها، وهذا عين ما عيب على شيخه الثعلبي، قال شيخ الإسلام: «والثعلبي يذكر ماقاله غيره، سواء قاله ذاكرًا أو آثرًا، مايكاد هو ينشئ من عنده عبارة». هذا فضلًا عن اختلاف منهجه في العزو، فمرة يذكر القائل ومرة يغفله تمامًا، وقد ينقل كلامًا لغيره لايعزوه، ثم يعزو إليه جملة في آخره، توهم أن هذه الجملة فقط من كلامه، بينما جميع ماتقدم كان منه وليس من الواحدي. =

. . . .

= سادسًا: رواية الواحدي عن شيوخه بأسماء غير ما اشتهروا بها، وهذا مايسمى عند علماء مصطلح الحديث: تدليسَ الشيوخ، وهو أقل أنواع التدليس خطورة. ومن أمثلته، عندما يذكر شيخه سعيد بن محمد الحيري، يذكره مرة هكذا، ومرة يقول: سعيد بن محمد المقرئ. وهكذا عندما يذكر أبا علي الفارسي، يذكره في بعض المواضع قائلًا: أبو علي الفسوي. وقال في موضع: «وقد أخبرنا أبو الحسين بن أبي عبدالله الفسوي ﷺ أنبا أحمد بن محمد الفقيه»، يعني بالأول شيخه عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر الفارسي، فذكره بكنيته وذكر أباه كذلك، ونسبه إلى قريته «فسا»، ويعني بالثاني: أحمد بن محمد الخطابي البستى، فأغمض في اسميهما، وأبعد في التعريف بهما رحمه الله.

سابعًا: ضخامة الكتاب، وغلظ حجمه مما أضعف الانتفاع به، وحد من انتشاره، وهذا أمر قد انتقده الواحدي على بعض المتقدمين، حيث إنه عندما ذكر سبب تأليفه، بين أن بعض التلاميذ «شكوا إلى غلظ حجم المصنفات في التفسير، وأن الواحدة منها تستغرق العمر كتبتها، ويستنزف الروح سماعها وقراءتها، ثم صاحبها بعد أن أنفق العمر على تحصيلها، ليس يحظى منها بطائل تعظم عائدته، وتعود عليه فائدته». وقد وقع رحمه الله فيما عاب عليه غيره، من أهل التفسير، والعجيب أنه مع تلك الإطالة الظاهرة يدعي الإيجاز فيما جاء به، فيقول: « . . . سالك نهج الإعجاز في الإيجاز، مشتمل على مانقمت على غيري إهماله، ونعيت عليه إغفاله، خالٍ عما يكسب المستفيد ملالة، ويتصور عند المتصفح إطالة»، ويقول: «ثم إن هذا الكتاب عجالة الوقت، وقبسة العجلان، وتذكرة يستصحبها المرء حيثما حل وارتحل» ثم وعد بكتاب أوفى منه وأجمع.

ثامنًا: ومما يؤخذ على الواحدي في جانب الرواية: جمع روايات الضعفاء في القصة الواحدة، وسوقها مساقًا واحدًا دون تمييز، حتى لايدرى خبر الثقة من غيره، وهذه قد وقع فيها الواحدي تبعًا لشيخه الثعلبي. ومن ذلك قول الثعلبي عند قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الثعلبي: «روت الرواة بألفاظ مختلفة، فقال بعضهم: لما نزلت هذه الآية . . . وهذا قول ابن مسعود وأبي هريرة وعائشة =

وعلى فهم الحديث بشروح الأئمة المبرّزين؛ كالعسقلاني والقسطلاني علي البخاري، والنووي على مسلم، والمناوي على الجامع الصغير، ويحرص على كتب الحديث؛ لا سيما الأمهات الستة، ويقتني سائر فنون العلم أصولًا وفروعًا وقواعد وسيرًا ونحوًا وصرفًا، ولا يأمر بإتلاف شيء من المؤلفات أصلًا، إلا ما اشتمل على ما يوقع الناس في الشرك، أو يحصل بسببه اختلاف العقائد الصحيحة، وما تظاهر به صاحبه معاندًا لأهل الحق، وأما ما يكذبه عليه الأعداء سترًا للحق وتلبيسًا للخلق؛ من أنه يفسر القرآن برأيه، ويأخذ من الحديث ما يوافق فهمه من غير مراجعة شرح ولا معوّل على شيخ بارز، وأنه يضع شيئًا من رتبة محمد ﷺ، أو أنه يُنكر الشفاعة، أو أن زيارته على الوجه الشرعي غير مندوبة، أو أنه يُكفر الأمة على الإطلاق، أو أنه يستحل دماء أهل القبلة من غير مبيح، أو أنه متظاهر بمذهب خامس، أو أنه على غير عقيدة السلف، أو أنه يُكفر بالمعاصي، أو أنه يُنكر على مَنْ أخذ

= وابن عباس . . . » وسرد جماعة من التابعين وأتباعهم. ونقل مثله الواحدي في تفسير الآية، قال الحافظ ابن حجر - معلقًا على هذا الصنيع -: وهذا من عيوب كتابه، ومن تبعه عليه، يجمعون الأقوال عن الثقات وغيرهم، ويسوقون القصة مساقًا واحدًا على لفظ من يُرمى بالكذب أو الضعف الشديد، ويكون أصل القصة صحيحًا، والنكارة في ألفاظٍ زائدة كما في هذه القصة، من تسمية الذين ذكروا، وفي كثير من الألفاظ التي نقلت، والسياق في هذه بخصوصها إنما هو لبعضهم.

تاسعًا: ومما يؤخذ على الواحدي عدم تبيين الراوي عن ابن عباس وغيره في بعض المواطن-، فلا يدرى هل هو من الطرق الصحيحة، أو من غيرها؟، ولا يمكن معرفة ذلك إلا بتخريج الأثر، إن وجد من يرويه بالسند، ولاشك أن هذا فيه إتعاب للباحث، وتلبيس على القارئ، وهذا مما أخذ على شيخه الثعلبي أيضًا».

بأحد المذاهب الأربعة، إلى غير ذلك مما افتراه عليه أعداء الدين وإخوان الشياطين، فجوابنا أن نقول: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾، ومن شاهد حاله وحال المسلمين وتحقق ما عندهم؛ علم قطعا أن جميع ذلك موضوع عليهم لصد الناس عن سبيل الله، وتنفيرا لهم، وإنما حملهم على ذلك ما حمل من كان قبلهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فصل

وأما قول القائل: إنه حكم بكفر الأمة ظلمًا وجورًا، واستحل دمائهم وأموالهم لحطام الدنيا، وجعلهم مشركين، وهم مسلمون بلا ريب[(١)].

فنقول: هذا كالذي قبله من الكذب والبهتان، فإن شيخ الإسلام رحمه الله لم يحكم بكفر الأمة على الإطلاق، ولم يستحل دماءهم وأموالهم كما قدمنا ما هو المعروف من سيرته، فلم يُكفر المسلمين، حاشا وكلا، بل عنده أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام، ويدين الله بموالاتهم ومحبتهم ونصرتهم، ويجعل كبير المسلمين كالأب، والصغير كالابن، والنظير كالأخ، عملًا بقوله تعالى:

---

(١) يُنظر: «منهج الإمام محمد بن عبدالوهاب في مسألة التكفير»؛ لأحمد الرضيمان. وقد قال الشيخ محمد: «وأما التكفير؛ فأنا أكفر من عرف دين الرسول، ثم بعدما عرفه سبه ونهى الناس عنه، وعادى من فعله، فهذا هو الذي أكفره، وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك». «مؤلفات الشيخ» (٥/ ٣٨).

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقوله ﷺ: **«المؤمنون في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[1]، وقوله: **«ليس منا لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا حقه»**[2]، إلى غير ذلك. والحكم بالإسلام والشرك والكفر حق لله تعالى، وأمره إليه، لا إلى الرجال، وبيانه في شرعه، فلا أصدق منه قيلًا، ولا أحسن منه حكمًا، وقد جعل ﷻ لكلٍ من الإسلام والشرك والكفر أقوالًا وأعمالًا وصفاتٍ دالة عليه، فمَن حكمت الشريعة بإسلامه فهو مسلم، ومَن حكمت الشريعة بشركه وكفره فهو مشرك كافر، ولم يكن بين الإسلام والكفر واسطة، فمن لم يكن مسلمًا لله وحده، وإلا فهو مشرك شاء أم أبى، ومَنْ لم يكن على السنة فهو مبتدع، شاء أم أبى، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفصل النزاع بيننا وبينكم في هذه المسألة وغيرها؛ هو الرد إلى كتاب الله المبين وذكره الحكيم وصراطه المستقيم، الذي ما تركه من جبار إلا وقصمه الله، ومَنْ ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وإلى سنة رسوله ﷺ، فإن الرد في موارد النزاع إلى كتاب الله وسنة رسوله واجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩١٩)، وصححه الألباني.

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، فهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين أصوله وفروعه إلى الله ورسوله، فمن أحال في الرد إلى غيرهما لقول فلان أو نص كتابه أو عمل فلان أو طريقته؛ فقد ضاد الله في أمره، فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾، وهذا شرط ينتفي المشروط بانتفائه، فدل على أن من حكّم غير الله ورسوله في موارد النزاع كان خارجًا عن مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه قاعدة عظيمة مهمة يحتاج إليها كل أحد، وطالب العلم إليها أحوج، فإنه في غالب الأحوال يرى أقوال أهل مذهبه قد خالفت نصوص الكتاب والسنة، وهذا من أعظم مكائد الشيطان وحبائله التي صاد بها كثيرًا ممن ينتسب إلى العلم والدين، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وأقبلوا على الكتب التي صنّفها متأخروهم، وقالوا: هم أعلم منا، ثم لم يكتفوا بها ولم يعملوا بما فيها، بل إن وافق ما فيها أهواءهم قبلوه وعملوا به، وقالوا: نص عليه في الكتاب الفلاني، وإن خالف بما فيها أهواءهم لم يعبأوا بها ولم يحتجوا بها، وصار حجتهم ما فعله إخوان الشياطين الذين بنوا القباب على القبور، وارتكبوا كل محضور، وزخرفوا القبور بالبناء، وكسوها كما يُكسى البيت الحرام، وفعلوا عندها ما يُفعل عند الأصنام، حتى آل الأمر إلى أن صار فعلهم هذا حجة يعارض بها النصوص، فقول قائلهم: هذا موجود في كل عصر ومصر من غير نكير، وغلبت عليهم العادات التي نشأوا عليها، ووجدوا آباءهم عليها، واحتجوا بالحجة القرشية: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا

عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾، وبالحجة الفرعونية: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾، وقبلهم قوم إبراهيم عليه السلام لما قال لهم: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾، والمشركون في هذا الزمان سلكوا سبيلهم حذوا القُذة بالقُذة، لما أُنكر عليهم الشرك بالله وتعظيم القبور والبناء عليها وإسراجها وشد الرحال إليها ودعائها والدعاء عندها؛ لم يكن لهم حجة يحتجون بها إلا هذه الحجج التي ذكرها الله عن المشركين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فصل

والمقصود أنه رحمه الله يحكم بكفر مَنْ كفّره الله ورسوله، وأجمع أهل العلم على تكفيره، وهم ثلاثة أصناف من الناس، ويستحل دماءهم وأموالهم؛ لقيام دليل النص والقياس الصحيح والإجماع على ذلك:

الصنف الأول: مَنْ عبد مع الله غيره؛ لمنافاته ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام، الذي دعا إليه رسول الله ﷺ، وقاتل عليه؛ كفعل هؤلاء المشركين الذين يدعون الأحجار والأشجار والأحياء الغائبين والأموات، وينحرون لهم القرابين، وينذرون لهم، ويعتمدون عليهم، ويخافون خوف السر منهم، ويهتفون عند الشدائد بأسمائهم، ويطلبون منهم كشف المهمات وتفريج الكرُبات، وقضاء الحاجات، إلى غير ذلك من الأفعال التي لا يستحقها إلا الله، ولا يجوز طلبها إلا منه، فأهل هذه الأفعال مشركون بلا ريب؛ لموافقتهم أفعال المشركين وتدينهم بدينهم، ومنافاتهم ما جاء به

الرسول ﷺ من إخلاص العبادة لله وحده، ومن المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن دعاء الأشجار والأحجار والغائبين والأموات لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من الصحابة دعا النبيَ ﷺ، ولا استغاث به بعد موته، ولو كان هذا جائزًا أو مشروعًا لفعلوه، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عدد كثير، فما منهم مَنْ استغاث عند قبر صحابي ولا دعاه ولا استنصر به، ومعلوم أن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه، وحينئذ فلا يخلو: إما أن يكون دعاء الموتى والغائبين وغيرهم أو الدعاء عندهم والتوسل بهم أفضل، أو لا يكون، فإن لم يكن وتركوه؛ فلا وُسّع على مَنْ لم تسعه طريقتهم، فإن كان هذا أفضل، فكيف خفي علمًا وعملًا على الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة الهدى؟ فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة علمًا وعملًا بهذا الفضل العظيم، ويظفر به الخلوف علمًا وعملًا، وإما أن يكون الصحابة علموا فضل ذلك وزهدوا فيه، مع حرصهم على الخير وطاعتهم لنبيهم ﷺ، وكلاهما محال، بل هم ﷺ أعلم الناس بكلام رسول الله ﷺ، وأطوع الناس لأوامره، وأحرص الناس على كل خير، وهم الذين نقلوا إلينا سنة نبينا ﷺ، فهلا فهموا ما فهمتموه من جواز دعاء الموتى وغيرهم، فضلًا عن استحبابه والأمر به؟ ومعلوم أنهم عرضت لهم شدائد واضطرابات وفتن وقحط وسنون مجدبات، أفلا جاءوا إلى قبر النبي ﷺ شاكين، وله مخاطبين، وبكشفها عنهم وتفريج كربتهم داعين، والمضطر يتسبب بكل سبب يعلم أن له فيه نفعًا، لاسيما الدعاء، فلو كان ذلك وسيلة مشروعة وعملًا صالحًا لفعلوه، فهذه سنة رسول الله ﷺ في أهل القبور والأشجار

والأحجار، حتى توفاه الله، وهذه سنة خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين، هل يمكن أحد منكم أن يأتي عنهم بنقل صحيح أو حسن أنهم كانوا إذا كانت لهم حاجة أو عرضت لهم شدة قصدوا القبور والأحجار والأشجار فدعوا عندها، وتمسحوا بها، فضلًا أن يسألوها حوائجهم؟ فمن كان عنده في هذا أثر أو حرف واحد في ذلك فليوقفنا عليه، نعم، يمكنكم أن تأتوا عن الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون بكثير من المختلقات والحكايات المخترعات والأحاديث المكذوبات؛ كقولهم: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»(١)، وكقولهم: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه»(٢)، ونحو ذلك مما هو مضاد لما عليه رسول الله ﷺ من الدين.

الصنف الثاني: الراضي بعبادة غير الله، وإن لم يفعل الكفر، فإن الرضى بالكفر كفر، والراضي كالفاعل إجماعًا، لم يختلف فيه اثنان؛ لدلالة النص والقياس على ذلك.

الصنف الثالث: الناصر لهذه المعبودات من دون الله، المحارب دونها، المظاهر لأهلها بماله أو نفسه أو كلاهما، فهذا كافر، وإن لم يفعل الكفر، قال تعالى ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقوله تعالى ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) قال شيخ الإسلام في «الاستغاثة» (٢/ ٤٨٣): «هذا مكذوب باتفاق أهل العلم، لم يروه عن النبي ﷺ أحد من علماء الحديث».

(٢) قال شيخ الإسلام في «الاستغاثة» (٢٤/ ٣٣٥): «هذا أيضًا من المكذوبات».

مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فعقد سبحانه الأخوة الكفرية بين المنافقين والكافرين بما أوعدوهم سرًا من نصرتهم إن قوتلوا، والخروج معهم إن أُخرجوا، وبيّن تعالى أن هذا كفرٌ مخرج لفاعله من الإسلام، ولو كان كاذبًا، فكيف بمن نصرهم صادقًا باطنًا وظاهرًا، وكثّر سوادهم وأعانهم بماله ونفسه ورأيه، وصار لهم جند محضرون؟ فأمر هؤلاء أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة، والله المستعان.

فصل

وأما قوله: «فهم مسلمون بلا ريب».

فنقول - وبالله التوفيق -: إن هذا القائل جاهل بما بعث الله به رسوله ﷺ من الدين، معاند لما استبان من الحق المبين، ومن المعلوم بالضرورة أن الله بعث محمدًا ﷺ بالتوحيد وإخلاص العبادة له وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾. والتوحيد ينقسم ثلاثة أنواع، وهي متلازمة، كل نوع لا ينفك عن الآخر:

النوع الأول: توحيد الربوبية والملك، وهو الإقرار بأن الله رب كل شيء ومالكه ورازقه، وأنه المحيي المميت الضار النافع، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد

الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، وغيرها من الآيات.

النوع الثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رءوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والإلهية، والكفار يقرون بجنس هذا، وإن كان بعضهم قد يُنكر بعض ذلك، إما جهلًا أو عنادًا.

النوع الثالث: توحيد الإلهية، المبني على إخلاص التأله لله تعالى؛ من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والرهبة والدعاء لله وحده، وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو معنى قول لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خُلقت الخليقة وأُرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وعنده افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فهو أول أمر في القرآن، وهو أول دعوة الرسل أولهم وآخرهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ

إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وهو أول واجب على المكلف، وأول ما يدخل به في الإسلام، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، وأبدا فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال، وهو حقيقة الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ بفعل المأمور وترك المحضور، وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة، فيجب إخلاصها لله تعالى، فمن أشرك بين الله وبين غيره في شيء منها، فليس بمسلم، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

فمنها: المحبة؛ فمن أشرك فيها بين الله وبين غيره فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: التوكل، فمن يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك.

ومنها: الخوف، فلا يخاف خوف السر إلا من الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، فمن خاف من غير الله أن يصيبه بمكروه بمشيئته وقدرته بلا مباشرة فهو مشرك.

ومنها: الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾، وقال علي رضي الله عنه: «لا يرجونّ عبدٌ إلا ربه»[(١)]، فمن رجا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك.

(١) قال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٨/ ١٦١) جوابًا عمن سأله عن هذا الأثر عن =

ومنها: الصلاة والركوع والسجود، قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فمن صلى لغير الله أو ركع أو سجد فهو مشرك.

ومنها: الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، فمن دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك.

ومنها: النذر، قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، فمن نذر لغير الله تقربًا إليه فهو مشرك.

ومنها: الاستعاذة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فمن استعاذ بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك.

ومنها: الاستغاثة، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، وفي حديث الطبراني: «**لا يُستغاث بي وإنما يستغاث بالله** ﷻ»[1]، فمن

= علي رضي الله عنه: «هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه؛ فإن الرجاء يكون للخير، والخوف يكون من الشر، والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه . . . ».

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» - كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩) - لأن مسند عبادة من القسم المفقود من معجم الطبراني - وقال: «رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث».

استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك. **والحاصل**: أن مَنْ أشرك بين الله وبين مخلوق فيما يختص به الخالق تعالى من هذه العبادات وغيرها فهو مشرك، وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة؛ لأن عباد القبور صرفوها لغير الله تعالى، وشركوا بين الله تعالى وبينهم فيها، وإلا فكل نوع من أنواع العبادة فمن صرفه لغير الله أو أشرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفّر الله به المشركين، وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، إلى غير ذلك من أنواع الربوبية، وكانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، فأتاهم النبي ﷺ بالتوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله، الذي مضمونه أن لا يُعبد إلا الله، لا ملَك مقرّب، ولا نبي مرسل، فضلًا عن غيرهما، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

فإذا تقرر هذا؛ وعرفت الشرك الذي قاتل رسول الله ﷺ أهله واستباح دماءهم وأموالهم عنده، ورأيتَ ما يفعله أهل هذا الزمان عند القبور والأشجار والأحجار؛ علمتَ قطعًا أنهم مشركون كشرك الأولين بلا ريب، بل يزيدون على ذلك بأمور:

منها: أن الأولين لا يُشركون مع الله إلا في حال الرخاء، وأما في حال الشدة فيُخلصون العبادة لله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: أن الأولين لا يدعون مع الله إلا أناسًا صالحين، وملائكة مقرّبين، وأشجارًا وأحجارًا مطيعة لله غير عاصية، وأهل زماننا يدعون مَنْ يشاهدون فسقه وفجوره، ومع هذا كله يقول هؤلاء الجاهلون، والأئمة المضلون: إنهم مسلمون!!

ويزيد المسألة وضوحًا؛ أن الدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، كما ذكر العلماء المحققون، ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر، فإن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على مَنْ عبد من دونه مَنْ لا يملك ضرًا ولا نفعًا؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾، وذلك كثير في القرآن، يبين أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يُدعى للنفع والضر دعاء مسألة، ويُدعى خوفًا ورجاء دعاء عبادة. فعُلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عبّاد القبور إذا احتُج عليهم بما ذكره الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له، قالوا: المراد به العبادة! فيقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا تعبدوا. فيقال لهم: وإن أريد به دعاء العبادة فلا ينفي أن يدخل دعاءه المسألة في دعاء العبادة؛ لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصها من القرآن إلا الآيات

التي ذُكر فيها دعاء العبادة، فكيف وقد ذكره الله في القرآن في غير موضع؟ قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٤٠) بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وقال عنه أيضًا: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وقال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، فكفى بهذه الآيات حجة وبرهان في الفرق بين التوحيد والشرك عمومًا، وفي هذه المسألة خصوصًا، وقال تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾، وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ

ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ ما لا يُحصى؛ منها: قوله فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.. إلى آخر الحديث**» رواه مسلم[1]، وقوله: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**» رواه أحمد[2] والترمذي[3] وابن ماجه[4] وابن حبان والحاكم وصححه[5]، وقوله: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض**» رواه الحاكم وصححه[6]، وقوله: «**الدعاء هو العبادة**» رواه أحمد[7] والترمذي[8]، وفي حديث آخر: «**الدعاء مخ العبادة**» رواه

(١) برقم (٢٥٧٧).
(٢) برقم (٨٧٣٣).
(٣) برقم (٣٣٧٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».
(٤) برقم (٣٨٢٩).
(٥) برقم (١٨٠١).
(٦) برقم (١٨١٢)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (برقم ١٧٩).
(٧) برقم (١٨٣٧٨).
(٨) برقم (٢٩٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

الترمذي[١]، وقال مطرّف: «تذكرت ما جماع الخير فإذا هو كثير الصلاة والصوم، وإذا هو في يد الله تعالى، وإذ أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك» رواه أحمد[٢]، والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى، فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجلّ العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك في الدعاء شركًا، فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك، فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ، فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا يُخلصون في الشدائد، وينسون ما يشركون؛ لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك، ولهذا احتج عليهم ﷻ بذلك على أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان إلهية ما سواه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، فهذا حال المشركين الأولين، وأما مشركو زماننا، فلا إله إلا الله! كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برًا وبحرًا أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من

(١) برقم (٣٣٧١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي».

(٢) في «الزهد» (ص ٣٤٤).

دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر شيخه وإلهه إن قام وإن قعد وإن عثر، هذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا عبد القادر، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يقول: يا أحمد البدوي، وهذا يقول: يا قوران، وهذا يقول: يا قيسان، وهذا يقول: يا البرق الأسود، وهذا يقول: يا زهير، وهذا يقول: يا محضار، وهذا يقول: يا عيدروس، وبالجملة؛ ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم ويلهجون بذكرهم، كما يلهج الصبي بذكر أمه، ويسألونهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، بل بلغ الأمر إلى أن يسألوهم مغفرة الذنوب، وترجيح الميزان، ودخول الجنان، والنجاة من النيران، والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تُطلب إلا من الله، كما قال البرعي[1]:

ماذا تعامل يا شمسَ النبوة مَن ... أضحى إليك من الأشواق في كبَدِ

فامنع جناب صريعٍ لا صريخ له ... نائي المزار غريبِ الدار مبتعدِ

حليفُ ودك واهي الصبر منتظرٌ ... لغارة منك يا ركني ويا عضُدي

أسير ذنبي وزلاتي ولا عملٌ ... أرجو النجاة به إن أنت لم تَجُدِ

وجرى في شركة إلى أن قال:

وحُلّ عقدة كربي يا محمد من ... همٍ على خطرات القلب مطّرد

---

(١) عبدالرحيم بن أحمد، شاعر يمني متصوف، من سكان النيابتين في اليمن، توفي عام ٨٠٣هـ. انظر ترجمته في «الأعلام» (٣/ ٣٤٣). وانظر في الرد على غلوه: رسالة «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي»؛ للأستاذ محمد لوح (٢/ ٢٧١-٢٧٤). ويُنظر للفائدة: رسالة «خصائص المصطفى ﷺ بين الغلو والجفاء»؛ للدكتور الصادق بن إبراهيم.

أرجوك في سكرات الموت تشهدني كيما يهون إذ الأنفاس في صُعُد
وإن نزلتُ ضريحًا لا أنيس له فكن أنيس وحيدٍ فيه منفرد
وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومَن يليه من أهله وانعشه وافتقِد
وإن دعا فأجبه واحم جانبه من حاسدٍ شامتٍ أو ظالمٍ نكد[1]

وقوله من أخرى[2]:

يا رسول الله يا ذا الفضل يا رحمةً عمّ بها الله الأناما
يا أباالقاسم يا أحمد يا بهجة المحشر جاهًا ومقاما
عُد على عبد الرحيم الملتجي بحمى عزك يا غوث اليتامى
وأقلْ عثرتي يا سيدي واكتسابي الذنب من خمسين عاما

وقوله من أخرى[3]:

يا سيدي يا رسول الله يا أملي يا موئلي يا ملاذي يوم تلقاني
هب لي بجاهك ما قدمتُ من زللٍ جُودًا ورجِّح بفضلٍ منك ميزاني
فأنت أقرب مَنْ تُرجى عواطفه عندي وإن بعُدت داري وأوطاني
إني دعوتك من نِيَّابَتي بُرَعٍ[4] وأنت أسمع مَنْ يدعوه ذو شانِ
فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي برحمة وكراماتٍ وغفران

---

(١) ديوانه (ص ٧١ - ٧٢).
(٢) ديوانه (ص ١٧٦).
(٣) بلدته -كما سبق.
(٤) ديوانه (ص ٧١ - ٧٢).

لقد أنسانا هذا ما قبله! وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارى في عيسى بن مريم ﷺ، إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهذا لم يُطلقه؛ لأنه أقرب إلى ترويج الباطل، وقبوله عند ذوي العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى في عيسى ﷺ كفر، فلو أتاهم[1] بدعوى النصارى اسمًا ومعنى لردوه وأنكروه، فأخذ المعنى وأعطاه البُرعي وأضرابه، وترك الاسم للنصارى، وإلا فما ندري ماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالى وتقدس في سؤال مطلب، أو تحصيل مأرب؟ فالله المستعان، وهذا كثير جدًا في أشعار المادحين لرسول الله ﷺ، وهو حجة أعداء دينه الذين يُجوزون الشرك بالله، ويحتجون بأشعار هؤلاء، ولم يقتصروا أيضًا على طلب ذلك من النبي ﷺ، بل يطلبون ذلك من غيره، كما قال بعضهم في بعض معابيدهم[2]:

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي	يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت ملاذي لما أخشى ضرورته	وأنت لي ملجأ من حادث الدهرِ[3]
وامنن عليّ بتوفيق وعافية	وخير خاتمة مهما انقضى عمُري
وكف عنا أكف الظالمين إذا	مُدت بسوء وأمر مؤلم نُكُرِ

(١) أي الشيطان. كما في «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٨٨)، والكتلاني ينقل منه ويختصر كلامه أحيانًا.

(٢) ذكرها النعمي في «معارج الألباب» (ص ١٩٦)، قال: «ومن عجيب طرائفهم في هذا الباب: قول بعضهم من قصيدة، وهي شيئ يقشعر منه الجلد . . . ».

(٣) بعده في «معارج الألباب»:

امدد بمواد اللطف منك وكن ... ليَ الكفيل بكشف الضر والظفر

فأنا عبدك الراجي بودك ما أملتُه يا صفي السادة الغررِ

قال بعض العلماء: فأي معنى اختص به الخالق ﷻ بعد هذه المهزلة، وما أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر؟ فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤلهون مَنْ عبدوه بشيء من هذا، وهذا بعض كلامهم، ولو ذهبنا نذكر ما يشابه هذا نظمًا ونثرًا لطال الكلام، وهؤلاء وأضرابهم عند ابن كمال أئمة الدين وخُلاصة الموحدين! واغوثاه!! هل يجتمع الإيمان بهذا والإيمان بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآية بتمامها، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا»[1]؟ فهل يجتمع الإيمان بقول هؤلاء المشركين والإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ من إخلاص العبادة لله رب العالمين؟ لا والله لا يجتمعان في قلب عبد إلا كما يجتمع أن موسى صادق على الحق، وأن فرعون صادق وعلى الحق.

كما قال القائل:

سارت مشرِّقة وسرتَ مُغرِّبًا شتان بين مشرِّق ومُغرِّب

صمٌ وبكمٌ عن حقيقة دينهم عميٌ عن القول المصيب الطيب

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٦).

قد أغرقوا في بحر شرك لجة   في ظلمة فيها الصواعق صيّب

فإذا فهمت ما تقدم من ذكر نوعي الدعاء؛ نعني دعاء المسألة ودعاء العبادة، وفهمت ما ذكرناه من الآيات والأحاديث الدالة على إخلاص العبادة لله واختصاصها به تعالى؛ فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن مَنْ صرف شيئًا من نوعَي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يُعبد إلا الله. فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله؛ فما أتى بهما حقيقة، وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا، ولنذكر شيئًا من كلام العلماء في ذلك، وإن كنا غنيين بكتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ عن كل كلام، إلا أنه قد صار بعض الناس منتسبًا إلى طائفة معينة، فلو أتيته بكل آية من كتاب الله وكل سنة عن رسول الله ﷺ لم يقبل ذلك، حتى تأتيه بشيء من كلام العلماء، أو بشيء من كلام طائفته التي ينتسب إليها.

قال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي صاحب كتاب الفنون الذي ألفه في نحو أربعمائة مجلد وغيره من التصانيف، قال في الكتاب المذكور رحمه الله: «لما صعبت التكاليف على الجهّال والطغَام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع؛ مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتْب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى»، نقله غير واحد، مقررين له،

منهم الإمام أبو الفرج[١]، والإمام ابن مفلح صاحب كتاب الفروع[٢]، وغيرهما رحمهما الله تعالى[٣].

وقال الإمام ابن النحاس الشافعي رحمه الله في كتاب الكبائر[٤]: «ومنها إيقاد السُرُج عند الأشجار والأحجار والعيون والآبار، ويقولون: إنها تقبل النذور، وهذه كلها بدع شنيعة ومنكرات قبيحة، تجب إزالتها ومحو أثرها، فإن أكثر الجَهال يعتقدون أنها تنفع وتضر وتجلب وتدفع وتشفي المريض وترد الغائب إذا نذر لها، وهذا شرك ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ»، فصرح رحمه الله أن الاعتقاد في هذه الأمور أنها تضر وتنفع وتجلب وتدفع وتشفي المريض وترد الغائب، إذا نذر لها، أن ذلك شرك، وإذا ثبت أنه شرك، فلا فرق في ذلك بين اعتقاده في النبيين والملائكة، وبين اعتقاده في الأصنام والأوثان، إذ لا يجوز الإشراك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص به الخالق سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وقال الإمام المحقق ناصر السنة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم، محدث الشام، المعروف بأبي شامة الشافعي في كتابه[٥] الذي اختصره من «الباعث على إنكار البدع والحوادث» للإمام أبي بكر

---

(١) ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ٤٨٣).
(٢) في «الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٦).
(٣) كابن القيم، في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٥).
(٤) «تنبيه الغافلين» (ص ٣٣٣).
(٥) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص ١٠١).

الطرطوشي[١]: «ومن هذا ما قد عمت به البلوى من تزيين الشياطين للعامة تخليق الحيطان والعمُد والمواضع المخصوصة، في كل بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن اشتُهر بالصلاح والولاية، يفعلون ذلك ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون ذلك إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، ويعظمونها، ويرجون الشفا لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة دمشق - صانها الله - من ذلك مواضع متعددة؛ كعوينة الحُمّى خارج باب توما، والعمود المخلّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر، في نفس قارعة الطريق، سهّل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق وغيره، عن أبي واقد الليثي»[٢]، فتأمل كلام هذا الإمام وتصريحه بأن الذي تفعله العامة في زمانه

---

(١) هكذا. وكتاب الطرطوشي اسمه «الحوادث والبدع». وأما «الباعث على إنكار البدع والحوادث» فهو لأبي شامة - كما سبق في الهامش الذي قبله -، قال فيه (ص ٨٥): «وقد صنف الشيخ الإمام أبوبكر الطرطوشي رحمه الله كتابًا ذكر فيه جملًا من بدع الأمور ومحدثاتها التي ليس لها أصل في كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا غيره، وهو كتاب حسن، مشحون بالفوائد على صغره.. وسننقل منه إلى هذا الكتاب جملة من فوائده في مواضعها».

(٢) قوله: «إن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يُقال لها ذات أنواط، يُعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنوط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**». أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٥٤٠٨).

في العمُد والشجر والمواضع المخصوصة مما قد عمت به البلوى، وأنه مثل فعل المشركين، وكان أبو شامة رَحِمَهُ اللهُ في أول القرن السابع، ومعلوم أن الأمر لا يزيد إلا شدة، كما هو معلوم بالمشاهدة.

وقال الشيخ أحمد بن حجر رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر»[١]: الكبيرة الأولى: الكفر والشرك أعاذنا الله منها، ولما كان الكفر أعظم الذنوب، كان أحق أن يُبسط الكلام عليه وعلى أحكامه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، وذكر الحديث الصحيح: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله**» الحديث[٢]، ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «تنبيهات: منها: بيان الشرك وذكر جملة من أنواعه؛ لكثرة وقوعها في الناس، وعلى ألسنة العامة من غير أن يعلموا أنها كذلك، فإذا بانت لهم فلعلهم أن يجتنبوها لئلا تحبط أعمالهم ويخلدون في أعظم العذاب..» ثم ذكر أنواعًا من الكفر، فتأمل قوله: «لكثرة وقوعها في الناس وعلى ألسنة العامة من غير أن يعلموا أنها كذلك»، وأن الشرك والردة قد يقع فيه كثير من أهل زمانه، تبين لك مصداق ما قلناه.

وقال الشيخ قاسم في «شرح درر البحار»[٣]: «النذر الذي يقع من أكثر

---

(١) (١/ ٢٧ - ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

(٣) نقله عنه ابن نجيم في «البحر الرائق» (٢/ ٣٢٠ - ٣٢١).

العوام بأن يأتي إلى قبر صالح قائلًا له: يا سيدي فلان أن رد غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب أو من الفضة أو من الطعام أو من الشمع كذا وكذا؛ باطل إجماعًا، لوجوه: منها: أن النذر للمخلوق لا يجوز، ومنها أن ذلك كفر.. إلى أن قال: وقد ابتلي الناس بذلك، لا سيما في مولد أحمد البدوي»، فصرح ﷺ بأن هذا النذر كفرٌ يكفر به المسلم بعد إسلامه.

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي في كتاب «الباعث على إنكار البدع والحوادث»[1]: «فانظروا رحمكم الله: أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويُعظمون شأنها، ويرجون البرء والشفاء من قِبلها، ويضربون بها المسامير، وينوطون بها الخرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها، قال[2]: ولقد أعجبني ما صنع الشيخ أبو إسحاق الجبيناني ﷺ ببلاد أفريقية في المائة الرابعة، أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية قد افتتنوا بها، يأتونها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال: فأنا في السحَر ذات ليلة، إذ سمعت أذان أبي إسحق نحوها، فخرجت، فوجدته قد هدمها، وأذّن الصبح عليها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأسًا، فلم يُرفع لها رأس إلى الآن».

وقال الشيخ صنع الله الحلبي في كتابه الذي ألفه في الرد على مَنْ ادعى أن

(١) الصواب أن اسمه «الحوادث والبدع» كما سبق. والنقل من (ص ١٠٥) ط: دار الغرب.

(٢) القائل: أبوشامة في كتابه «الباعث..» (ص ١٠٣ - ١٠٤)، عقّب به على كلام الطرطوشي.

للأولياء تصرفًا في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة[١]: «هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفًا في حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهم تُكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور، قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي، والعذاب السرمدي؛ لما فيه من العذاب المحقق، ومضادة للكتاب المصدّق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة، ففي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾، إلى أن قال: الفصل الأول: فيما انتحلوه من الإفك الوخيم والشرك العظيم، وذكر أشياء يطول ذكرها»، فانظر كيف صرح هذا الشيخ أن مَنْ طلب كشف الشدائد وجلب الفوائد من الأولياء وذبح لهم ونذر لهم أن هذا من الشرك العظيم المخالف لعقائد المسلمين، وأنه موجب للهلاك الأبدي والعذاب السرمدي.

وفي فتاوى البزازية من كتب الحنفية: «قال علماؤنا: مَنْ قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم، يكفر»[٢]، فإن أراد بالعلماء علماء الشريعة فهو حكاية للإجماع على كفر معتقد ذلك، وإن أراد علماء الحنفية خاصة فهو

---

(١) اسمه: «سيف الله على من كذب على أولياء الله». انظر (ص ١٥ - ١٨).
(٢) يُنظر: «البحر الرائق» (٥/ ١٤٣).

حكاية لاتفاقهم على كفر معتقد ذلك، وعلى التقديرين تأمله تجده صريحًا في كفر مَنْ دعا أهل القبور؛ لأنه ما دعاهم حتى اعتقد أنهم يعلمون ذلك، ويقدرون على إجابة سؤاله، وقضاء مأموله.

وقال شيخ الإسلام أبو العباس في «الرسالة السنية»(١): «فإذا كان على عهد النبي ﷺ مَنْ انتسب إلى الإسلام قد مرق منه مع عبادته العظيمة، فليُعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام، وذلك بأسباب؛ منها: الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الآية، وكذلك الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، كل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الإلهية، مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني وأغثني أو ارزقني أو اجبرني أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، ولا يدعى معه إله آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق وتنزل المطر وتنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فبعث الله رسله تنهى عن أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة»، فتأمل ما صرح به هذا

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٣)، وتسمى: الوصية الكبرى، أوصى بها جماعة الشيخ عدي بن مسافر. وطُبعت مفردة -أيضًا.

الشيخ في كلامه تجد مصداق ما ذكرنا.

وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن علي[١] صاحب كتاب «الخطط» في كتاب له في التوحيد[٢] على أن من دعا غير الله أشرك.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعا»[٣]، نقله عنه غير واحد من أئمة الحنابلة مقررين له، منهم ابن مفلح في «الفروع»[٤]، وصاحب «الإنصاف»[٥]، و«صاحب الغاية»[٦]، وصاحب «الإقناع»[٧]، وشارحوهم، وغيرهم، ونقله صاحب «القواطع» في كتابه[٨]، وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين.

وقال ابن القيم رحمه الله في «شرح المنازل»[٩]: «ومن أنواعه - أي الشرك -: طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم؛ لأن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا،

---

(١) المقريزي.
(٢) اسمه «تجريد التوحيد». انظر: (ص ٢١ وما بعدها).
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٢٤).
(٤) (٦/ ١٦٥).
(٥) المرداوي، (٢٧/ ١٠٨ - ١٠٩). ط: الدكتور عبدالله التركي.
(٦) مرعي الكرمي، في: «غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى» (٣/ ٣٥٥).
(٧) الحجّاوي (٤/ ٢٨٥).
(٨) ابن حجر الهيتمي، في «الإعلام بقواطع الإسلام» (ص ٩٥)، وانظر: «الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية» (٢/ ٥٣٤).
(٩) (١/ ٣٧٥ - ٣٧٦).

فضلا لمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله سبحانه لا يشفع عند أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سببا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، وندعو لهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا، وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثانا تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، أو أنهم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، ولله در خليله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وما نجا من شرَك هذا الشرك الأكبر إلا مَنْ جرّد توحيده لله، وعادى المشركين لله، وتقرب بمقتهم إلى الله»، فتأمل كلام هذا الإمام وتصريحه بأن مَنْ دعا الموتى وتوجه إليهم واستغاث بهم ليشفعوا له عند الله فقد فعل الشرك الأكبر، الذي بعث الله محمدًا ﷺ بإنكاره على مَنْ لم يتب منه، وقتاله ومعاداته، وأن هذا قد وقع في زمانه المتقدم، وأنهم غيروا دين الرسل، وعادَوا أهل التوحيد الذين يأمرونهم بإخلاص العبادة لله، فتأمل قوله: «وما أعز مَنْ يتخلص من هذا، بل ما أعز مَنْ لا يعادي من أنكره»، يتبين لك الأمر إن شاء الله.

وقال في «الإقناع» وشرحه[١]: «مَنْ جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم كفر إجماعًا»؛ لأن هذا كفعل عابدي الأصنام القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فهذا إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في باب حكم المرتد على أن مَنْ أشرك بالله فهو كافر، أي عبد مع الله غيره، وإن كان يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويصلي ويصوم ويدعي الإسلام، حتى أنهم ذكروا أنواعًا كثيرة كل نوع منها يكفر به الرجل ويُحل ماله ودمه، ولم يرد في نوع منها ما ورد في الدعاء، بل لا نعلم نوعًا من أنواع الكفر ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله؛ بالنهي عنه والتحذير من فعله والوعيد عليه، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن دعاء الله عبادة له، فيكون صرفه لغيره شركًا، ولو ذهبنا نذكر أقوال العلماء وما قد رووه في ذلك؛ لاستدعى طولا، وهذه الرسالة لا تحتمل بسطًا أكثر مما ذكرنا، وقد ذكرنا ولله الحمد والمنة من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء ما فيه كفاية، من قيام الحجة، وصحة الدلالة على شرك أهل زماننا الذين يدعون الأشجار والأحجار والأحياء والأموات من دون الله.

ولا يشتبه هذا إلا على مَنْ لم يعرف حقيقة ما بعث الله به محمدًا ﷺ من التوحيد، ولم يعرف حقيقة شرك المشركين الذين كفرّهم النبي ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم، وأمره الله أن يقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن لا يجعلنا ممن قال فيهم:

(١) كما سبق.

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

فصل

وأما قول القائل: «إنما حمله على ذلك حطام الدنيا».

فنقول: هذا بزعمه، والزعم أكذب الحديث ومَنْ شاهد حاله رحمه الله وعلم سيرته وما دعا إليه تبين له أن ما حمله العمل بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآيات. والآيات على هذا كثيرة والاقتداء برسول الله ﷺ المبعوث بقضيب الأدب، الضحوك القتال[1]، حيث قال ﷺ: «**بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي..**»[2] الحديث، وخرج البغوي رحمه الله في معجمه حديثًا مرفوعًا: «**إن الله بعثني بالهدى ودين الحق، ولم يجعلني زراعًا ولا تاجرًا ولا سخابًا بالأسواق، وجعل رزقي في رمحي**»[3]، وجاء في حديث مرسل أنه ﷺ قال: «**أنا رسول الرحمة، أنا**

---

(١) قال ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص ٣٦٣): «وأما صفته ﷺ في بعض الكتب المتقدمة بأنه الضحوك القتال؛ فالمراد به أنه لا يمنعه ضحكه وحسن خلقه عن القتل إذا كان حدًا لله وحقًا له، ولا يمنعه ذلك عن تبسمه في موضعه».

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الجهاد: «باب ماقيل في الرماح»، والإمام أحمد في «المسند» (٥١١٤)، وحسنه الألباني في «إرواء الغعليل» (٥/١٠٩).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٤٧).

رسول الملحمة، إن الله بعثني بالجهاد ولم يبعثني بالزراع»[١]، وفي الحديث الذي خرجه أبو داود وغيره: «إذا تبايعتم بالعينة واتبعتم أذناب البقر وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه من رقابكم حتى تراجعوا دينكم»[٢]، ولما عزم الأنصار على ترك الجهاد والاشتغال بإصلاح أموالهم عاتبهم الله بقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٣]، فلم يزل ﷺ يدعو الله وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له بالحجة والبيان، والسيف والسنان، وأخبر أن الجهاد ماضٍ منذ بعثه إلى أن يقاتل آخر أمته المسيح الدجال، وأخبر أن رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، وقال: «إن في الجنة لمائة درجة بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله» متفق عليه[٤]، وقال: «مَنْ اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار» أخرجه البخاري[٥]، وقال: «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل» رواه أهل السنن[٦]، وقال ﷺ: «إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»[٧]، والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يُحصر،

---

(١) ضعيف الجامع (٣٢٤٦).

(٢) أخرجه أبوداود (٣٤٦٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (برقم ١١).

(٣) أخرجه أبوداود (٢٩٧٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (برقم ١٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) ومسلم (١٨٨٤).

(٥) أخرجه البخاري (٩٠٧).

(٦) أخرجه الترمذي (١٦٦٧) والنسائي (٣١٦٩) وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٢٤).

(٧) ضعيف بهذا اللفظ. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٤٤٢)، وصح بلفظ: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» أخرجه أبوداود (٢٤٨٦)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود».

ولم يرد في أبواب الأعمال وفضلها ما ورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار، وأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، فإنه مشتمل على محبة الله والإخلاص له والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين: إما الظفر والنصر، وإما الشهادة والجنة، فهذا هو الذي حمل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدّس الله روحه ونوّر ضريحه على جهاد المشركين، لا كما يقوله الجاهل الجبان أن الذي حمله على ذلك حطام الدنيا، ومن المعلوم أن المجاهد مسلم نفسه وماله لله، وهذا هو حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وحطامها، وحقيقة الزهد في البقاء فيها؛ كما قال تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

فليتأمل العاقل اللبيب ما أجلّ هذا العقد، فإن الله ﷻ هو المشتري والثمن الجنة، والذي جرى على يديه هذا العقد أشرف الرسل من الملائكة ومن البشر، وإن سلعة هذا شأنها لعظيمة، مهر الجنة والمحبة بذل النفس والمال لمالكها، فما للجبان المعرض المفلس وسَوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون! وما كسدت فيفهقها بالنسيئة المُعسرون! فقد أقيمت للعرض في سوق مَنْ يزيد، لم يرض بها لها ثمن دون بذل النفس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون أيهم أصلح أن تكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، فوقعت في يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولما كثر

المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الأخرق حرفة الشيء، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فتأخر الخلق كلهم وأثبت أتباع الرسول ﷺ في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، وطولبوا بعدالة البينة فقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد، والتبايع يوجب التسليم من الجانبين، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان من غير خيار، فلما تم العقد وأسلموا المبيع قيل: قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا، والآن قد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أمثالها، فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به الخلائق، فقد أعطى السلعة وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعطى عليه أجل الأثمان، وأثنى عليه ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له، وشاءه لله منه، لقد حرك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الزاكية والهمم العالية، وسمع نادي الإيمان من كانت له أذن واعية سمع، وأسمع الله من كان حيا فهزه إلى منازل الأبرار، وحدى به في طريق سيره، فما حطت رحاله إلا بدار القرار[1]، ولله در القائل حيث قال[2]:

يا سلعة الرحمن أين المشتري ... فلقد عرضت بأيسر الأثمان

يا سلعة الرحمن سوقك كاسد ... بين الأراذل سفلة الحيوان

---

(١) اختصر المؤلف هذا الكلام عن الجنة من «زاد المعاد»؛ لابن القيم (٣/ ٧٢ - ٧٥).

(٢) هو ابن القيم، في «النونية» (٢/ ٦٠٠ - ٦٠٢) مع شرح ابن عيسى.

يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحد لااثنان
يا سلعة الرحمن لولا أنها حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف وتعطلت دار الجزاء الثاني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى رب العلى بمشيئة الرحمن
فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد راحاته يوم المعاد الثاني

والمقصود: أن الشيخ رحمه الله لم يبدأ الناس أولا بالتكفير والقتال[١]، بل دعاهم إلى التوحيد، وأخبر أن العبادة محض حق الله تعالى لا يصرف منها شيء لا لملك مقرب ولا نبي مرسل، فضلا عن غيرهما، وأن ما يفعله غالب الناس من صرف العبادة لغير الله فهو شرك، كما قدمنا، وصاروا كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، وهو رحمه الله لا يُكفر إلا من كفره الله ورسوله، وأجمع العلماء على تكفيره، وبلغته الدعوة، وقامت عليه الحجة التي يكفر مَنْ خالفها ويُقتل، وقد أجمع الأمة على جواز قتال الطائفة الممتنعة من فعل واجب مجمع على وجوبه، ومن ترك محرم مجمع على تحريمه، وإن نطقوا بالشهادتين وادعوا الإسلام وانتسبوا إليه، ولا ينكر هذا أحد عرف ما جاءت به الشريعة من الدين، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، فكيف بمن ترك دين الرسل من أولهم إلى آخرهم، الذي أُنزلت لأجله الكتب، وأُرسلت لأجله الرسل، وخُلقت الخليقة، وجُردت سيوف الجهاد، وتفرق الناس عنده

---

(١) بل هم بدؤوه! قال رحمه الله: «وأما القتال؛ فلم نقاتل أحدًا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة، وهم الذين أتونا في ديارنا، ولا أبقوا ممكنًا». «مؤلفات الشيخ» (٥/ ٣٨).

بين مسلم وكافر، ومعلوم بالاضطرار أن هذا أولى وأحرى أن يُقاتل عليه، وتُجرد سيوف الجهاد لأجله، ولا يقول لمن قام به: قائم للدنيا، وأشباه هذا الكلام الباطل إلا رجلٌ أعمى الله بصيرته، وغلبت عليه جهالته، هذا خطابنا عند مَنْ له عقل ولب، وهو متصف بالإنصاف، حائل عن التعصب والميل والاعتساف، يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال، ينظر إلى ما يقال، لا إلى ما قال، وأما من شأنه لزوم مألوفه وعادته؛ فهذا وأمثاله لا يخاطب إلا بالسيف، حتى يستقيم أوده، ويصلح معوجّه، ونسأل الله تعالى أن يفتح أبواب سمواته بجنوده القاهرة، ويعيد الكرة للعصابة المنصورة الظاهرة، وينشر علم الجهاد، ويُظهر الحق بالآيات الباهرة، ويقيم عمود الكتاب بعد ميله، ويرفع لواء الدين بقوته وحوله، ويُرغم معاطس أهل الكفر والنفاق، ويجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق، وأن يُتم هذه النعمة العظيمة، بظهور الدعوة النبوية القويمة، ويشفِ صدور المؤمنين من أعاديهم، ويمكنهم من أقاصيهم ودانيهم، إنه على كل شيء قدير.

فصل

وأما استدلاله على إسلام الأكثر بقوله ﷺ: «**عليكم بالسواد الأعظم**»[1].

فنقول: هذا الاستدلال فاسد من أفسد الاستدلالات، وذلك لسوء فهمه وقلة علمه، ومن المعلوم بالضرورة أنه ﷺ لم يتكلم قط بما يخالف القرآن،

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٤٧٣) وابن ماجه (٣٩٥٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه».

ومحال أن يريد بقوله: «عليكم بالسواد الأعظم» أنهم الأكثرون عددًا، وأن يأمر بالكينونة معهم، واتباع سبيلهم، وقد أفصح القرآن بذمهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، ونظائر هذا كثير في القرآن، يذم سبحانه الكثير ويمدح القليل، أيظن عاقل أن رسول الله ﷺ يأمر باتباع مَنْ ذمهم الله في كتابه؟ يا سبحان الله! ما أعجب جهله وسوء فهمه وقلة علمه وجرأته! لأنا لا نعلم أحدًا من أهل العلم استدل على إسلام الناس بكثرتهم، مستفهمًا الدلالة من هذا الحديث، إلا هذا الجاهل المتخبط، بل الصحيح عكس ما فهمه.

قال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي بكر بن قيم الجوزية في كتاب «إعلام الموقعين»[1]: اعلم أن الجماعة والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق، وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض. قال عمرو بن ميمون: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة»، وسمعته يقول: «سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن وقتها فصل الصلاة وحدك وهي الفريضة ثم صل معهم فإنها لك نافلة»، فقلت: يا

(١) (٣/٤٠٩ - ٤١٠).

أصحاب محمد، ما أدري ما تُحدثون. قال: «وما ذاك؟»، قلت: تأمرني بالجماعة، ثم تقول: صل الصلاة وحدك! قال: «قد كنتُ أظنك من أفقه أهل هذه القرية! أتدري ما الجماعة؟»، قلت: لا، قال: «جمهور الجماعة هم الذين فارقوا الجماعة، الجماعة ما وافق الحق وإن كنتَ وحدك». قال نعيم بن حماد رحمه الله: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كان عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك، فأنت الجماعة حينئذ. وقال بعض الأئمة وقد ذكر السواد الأعظم: أتدري ما السواد الأعظم؟ هو محمد بن أسلم الطوسي وأصحابه، الذين جعلوا السواد الأعظم والحجة والجمهور والجماعة، فجعلهم المتحذقون عارًا على السنة، وجعلوا السنة بدعة، وجعلوا المعروف منكرًا؛ لقلة أهله وتفردهم في الأعصار والأمصار، وقالوا: مَنْ شذ شذ في النار، ولم يعرف المخذولون أن الشاذ مَنْ خالف الحق وإن كان الناس كلهم إلا واحدًا، فهم الشاذون، وهو الجماعة، وقد شذ الناس في زمان الإمام أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا، فكانوا هم الجماعة، وكان القضاة والمفتون والخليفة وأتباعهم هم الشاذون، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة، ولما لم يحتمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين: أتكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون على الباطل وأحمد وحده على الحق؟ فلم يتسع علمه لذلك، فأخذوه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل، فلا إله إلا الله! ما أشبه الليلة بالبارحة انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى.

فمن فهم ما ذكره الله في كتابه في ذم الأكثر ومدح الأقل، وفهم كلام الصحابة كابن مسعود في تفسير السواد الأعظم، وفهم كلام التابعين والسلف الصالح والمتأخرون في ذلك؛ عرف فساد قوله وسوء فهمه أن السواد الأعظم

أنه الأكثر، وعرف أن رسول الله ﷺ أراد بالسواد الأعظم أهل الحق، وإن كانوا قليلين عددًا، فهم الأعظمون عند الله قدرًا، ويزيد المسألة وضوحًا ما ثبت عن النبي ﷺ من الأحاديث الواردة في غربة الإسلام وأهله روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[1]، وخرجه الإمام أحمد[2] وابن ماجه[3] من حديث ابن مسعود بزيادة في آخره، فقيل: يا رسول الله ما الغرباء؟ قال: «النزّاع من القبائل»، وخرجه أبو بكر الآجري[4] وعنده: قيل ومَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**»، وخرجه غيره، وعنده: «**الذين يفرون بدينهم من الفتن**»[5]، وخرجه الترمذي من حديث كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: «**إن الدين بدأ غريبًا وسيرجع غريبًا فطوبى للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس من سنتي**»[6]، وخرجه الطبراني من حديث جابر بن عبد الله وعنده: قيل مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «**الذين يصلُحون إذا فسد الناس**»[7]، وخرجه أيضًا[8] من حديث

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦).

(٢) في «مسنده» (٣٤٨٧).

(٣) (٣٩٨٨). وضعف الألباني الزيادة في «ضعيف ابن ماجه».

(٤) في «الغرباء» (ص ١٥ - ١٦). بسند صحيح.

(٥) أخرجه بنحوه عبدالله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص ١٨٧)، وأبونعيم في «الحلية» (١/ ٢٥). وضعفه الشيخ سليم الهلالي في تعليقه على «الغربة والغرباء».

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي».

(٧) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٥٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (برقم ١٢٧٣).

(٨) في «الكبير» (برقم ٥٨٦٧).

شريك بن مسعود[١] نحوه، وخرجه الإمام أحمد[٢] من حديث سعد بن أبي وقاص، وفي حديثه: «**فطوبى يؤمئذ للغرباء إذا فسد الناس**»، وخرجه الإمام أحمد[٣] والطبراني[٤] من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**طوبى للغرباء**»، قلنا: وما الغرباء؟ قال: «**قوم صالحون قليل في قوم سوء كثير مَنْ يعصيهم أكثر مما يطيعهم**»، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا في هذا الحديث قال: ومن الغرباء؟ قال: «**الفرارون بدينهم يبعثهم الله تعالى مع عيسى بن مريم** عليه السلام»[٥].

قال أبو الفرج عبد الرحمن بن الشيخ ابن رجب رحمهم الله[٦]: «قوله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا**» يريد أن الناس كانوا قبل مبعثه ﷺ على ضلالة عامة؛ كما قال النبي ﷺ في حديث عياض بن حمار رضي الله عنه الذي خرجه مسلم: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[٧]، فلما بعث النبي ﷺ ودعا إلى الإسلام لم يستجب له في

---

(١) هكذا. والصواب: سهل بن سعد. انظر: «كشف الغربة»؛ لابن رجب، بتحقيق الشيخ بدر البدر. والكتلاني ينقل منها. وانظر التخريج الموسع لأحاديث الغربة في رسالة «كشف اللثام عن طرق حديث غربة الإسلام»؛ لعبدالله الجديع.

(٢) برقم (١٦٠٤)، وجود إسناده الأرنؤوط.

(٣) برقم (٦٦٥٠)، وحسنه الأرنؤوط.

(٤) في «الأوسط»، برقم (٨٩٨٦).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٤٩)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (برقم ١٨٥٩).

(٦) في رسالته «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة»، (ص ١٧ - ٢٧) - باختصار -.

(٧) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

أول الأمر إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة، وكان المستجيب له خائفًا من عشيرته وقبيلته، يؤذى غاية الأذى، ويُنال منه وهو صابر على ذلك في الله ﷻ، وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين يُشردون في كل مشرد، ويهربون بدينهم إلى البلاد النائية، كما هاجروا إلى الحبشة مرتين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكان منهم مَنْ يُعذب في الله، ومنهم مَنْ يُقتل، فكان الداخل في الإسلام حينئذ غرباء، ثم ظهر الإسلام بعد الهجرة، وعز وظهر أهله ظاهرين كل الظهور، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وأكمل الله لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، وتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة في دينهم، وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا على ذاك في زمن أبي بكر وعمر ﭭ، ثم استعمل الشيطان مكائده على المسلمين، وألقى بأسهم بينهم، وأفشى بينهم فتنة الشبهات والشهوات، ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئًا فشيئًا، حتى استحكمت مكيدة الشيطان، وأطاعه أكثر الخلق، فمنهم مَنْ دخل في فتنة الشبهات، ومنهم مَنْ دخل في فتنة الشهوات، ومنهم مَنْ جمع بينهما، وكل ذلك مما أخبر النبي ﷺ بوقوعه، ووقع الأمر كما أخبر، فلم ينج من هذا إلا نفر يسير، فرقة واحدة، وهي الفرقة الناجية، وهم المذكورون في هذه الأحاديث: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**»، وهم «**الذين يُصلحون ما أفسد الناس من السنة**»، وهم «**الغرباء الفرارون بدينهم من الفتن**»، وهم «**النُزاع من القبائل**»؛ لأنهم قلوا فلا يوجد في القبيلة منهم إلا واحدٌ أو اثنان، وقد لا يوجد في بعض القبائل منهم أحد، كما كان الداخلون في أول الإسلام في أول الأمر كذلك، وبهذا فسرت الأمة هذا الحديث، ولهذا المعنى يوجد في كلام السلف كثيرًا

مدحُ السنة ووصفها بالغربة، ووصف أهلها بالقلة، فكان الحسن رَحِمَهُ اللهُ يقول لأصحابه: يا أهل السنة ترفقوا، فإنكم من أقل الناس، وقال يوسف بن عبيد: ليس شيء أغرب من السنة وأغرب منها مَنْ يعرفها، وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ قال: استوصوا بأهل السنة خيرًا فإنهم غرباء، ومراد هؤلاء الأئمة رحمهم الله بالسنة: طريق النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه، السالمة من الشبهات والشهوات، كما قال الحسن ويوسف وسفيان والفضيل وغيرهم، ولهذا وُصف أهلها بالغربة في آخر الزمان؛ لقلتهم وغربتهم فيه، كما سبق في بعض طرق الحديث: «**هم قوم صالحون قليل في قوم سوء كثير مَنْ يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»، . . ثم ذكر أحاديث في هذا الشأن لم تتسع لها هذه الرسالة.

وبالجملة؛ إن مَنْ فهم ما ذكره الله تعالى في ذم الأكثر ومدح الأقل، وما ذكره السلف الصالح والتابعون والأئمة في تفسير السواد الأعظم والجماعة أنه مَنْ كان على الحق وإن كان وحده، عرف أن الذي فهمه هذا الجاهل أنه باطل مخالف لكلام الله وكلام رسوله والسلف الصالح، وتبين له سوء فهمه وقلة علمه ورأيه.

ولله در القائل حيث يقول[1]:

من أين أنتم والحديث وأهله   والرأي أين الرأي والقرآن
تبًّا لكم لو تعلمون لكنتم   خلف الخدور كأضعف النسوان

---

(١) ابن القيم في «النونية» (٢/ ٢٧٨) بشرح ابن عيسى.

فصل

وأما قوله في قوله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[١].

فنقول: الحمد لله، ما قاله رسول الله ﷺ حق، ونؤمن به، وندين الله به، وهو حجة لنا بحمد الله، ومراده ﷺ بأمته التي لا تجتمع على ضلالة هم الفرقة الناجية، وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم، وهم الذين كانوا على ما كان عليه هو وأصحابه من التوحيد وإخلاص الدين لله وحده، وترك عبادة ما سواه، فهؤلاء هم الذين كانوا لا يجتمعون على ضلالة، لا ما يظنه ويزعمه هذا الجاهل المشبه، أنهم الذين جمعوا بين الشرك والبدع، ولم يعرفوا ما بعث الله به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، وهذا في غاية الوضوح، والنصوص مصرحة به، وأهل السنة والجماعة مجمعون عليه، ولا يُشكل هذا إلا على مَنْ أعمى الله بصيرته، وأزاغ قلبه، حتى استحسن ما عليه أهل زمانه من الأوضاع البدعية، والأفعال الشركية، وصار عنده المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، عياذًا بك اللهم من موجبات غضبك، وأليم عقابك.

ويقال أيضًا: إذا كنتَ تزعم أن دعاء الأشجار والأحجار والقبور أمرٌ جائز عند الأمة المعصومة عن الاجتماع على ضلالة، وأمكنك أن تأتينا عن أحد من الأئمة المقتدى بهم بنقل صحيح أو عبارة أو حرف واحد، فافعل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٧)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٣١).

وقوله: «**أمتي لا تعبد شمسًا ولا قمرًا**»[1]، فنقول: أمته ﷺ الذين لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا هم الذين لا يجتمعون على ضلالة، وهم الذين كانوا على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لأنه من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن مَنْ عبد مع الله غيره فليس من أمة محمد ﷺ بالنص والإجماع، والشرك يحصل بعبادة غير الله مطلقًا، سواء عبد شمسًا أو قمرًا أو شجرًا أو حجرًا أو قبرًا، وأن الله بريء منه، كما قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهذا الجاهل الملبس على الناس، مراده من هذا القول أن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وأن ما يفعله أهل هذا الزمان من دعوة غير الله، والتعلق على أهل القبور والأشجار والأحجار وغيرها ليس بشرك، وأنهم لم يكونوا مشركين إلا بعبادة الشمس والقمر، سبحان الله! ما أجهل هذا القائل وأجرأه! ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومما يزيل شبهته ويدحض حجته: ما أخبر النبي ﷺ بوقوعه من الشرك في هذه الأمة في الأحاديث الصحيحة الصريحة؛ منها: ما رواه إمام أهل السنة والحديث محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه قال: باب تغير الزمان حتى تُعبد الأوثان، وذكر السند إلى أن قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس عند ذي الخلصة**»، قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدونها في

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥) - بلفظ -: «إن أخوف ما أتخوف على أمتي، الإشراك بالله، أما إني لست أقول: يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا وثنًا، ولكن أعمالًا لغير الله وشهوة خفية، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه».

الجاهلية[1]. ومنها: ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى**»[2]، ومنها: ما رواه الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب البرقاني الشافعي في صحيحه بسنده عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**» إلى آخره[3]، ورواه بن ماجة بنحوه[4]، وفي رواية أبي داود: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين**». قال أبو السعادات: «الفئام: الجماعات الكثيرة».

ففي هذه الأحاديث الرد على الذين ينكرون وقوع الشرك وعبادة الأوثان في الأمة[5]، ويزيد ذلك وضوحًا وبيانًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، فأخبر

---

(١) أخرجه البخاري (٧١١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٤٤٨)، وأبوداود (٤٢٥٢) وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٥) يُنظر للمزيد: «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (١/ ٧٣٩ - ٧٧٣)، ورسالة «دحض شبهات على التوحيد من سوء الفهم لثلاثة أحاديث»؛ للشيخ عبدالله أبا بطين.

تعالى أن في بني إسرائل مَنْ آمن بالجبت وعبد الطاغوت، ولا بد من وقوع ما فعلت بنو إسرائيل في هذه الأمة؛ لما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعن سنن مَنْ كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال «**فمن؟**»[(١)]، وفي بعض سياق الحديث لمسلم: «**لتتبعن سنن مَنْ كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**» الحديث[(٢)]، وفي حديث آخر: «**لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي مَنْ يصنع ذلك**»[(٣)]، وفي حديث آخر: «**لو كان أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه**»[(٤)]، فأخبر ﷺ في هذه الأحاديث وغيرها أن أمته ستفعل ما فعلته اليهود والنصارى وفارس والروم من الأديان الباطلة والعادات الفاسدة، فمن فهم ما أخبر الله به كتابه، وأخبر به رسول الله ﷺ، ورأى الواقع من غالب الناس؛ عرف مصداق ما أخبر بوقوعه ﷺ؛ لأن الأمر وقع كما أخبر، وتبين له فساد احتجاج هذا الملبس الصادّ عن سبيل الله.

فرحم الله بن القيم حيث قال[(٥)]:

يا أمة لعبت بدين نبيها ... كتلاعب الصبيان في الأوحال

نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم ... نبذ المسافر فضلة الأكّال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) بالرقم السابق.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٠٤).

(٥) في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣١ - ٢٣٧).

إن قلتَ قال الله قال رسوله ... همزوك همز المنكر المتعالي
أو قلتَ قد قال الصحابة والأُلى ... تبعوهم في القول والأعمال
أو قلتَ قال الآل آل المصطفى ... صلى عليه الله أفضل آل
أو قلتَ قال الشافعي وأحمد ... وأبو حنيفة والإمام العالي
أو قلتَ قال صحابهم من بعدهم ... فالكل عندهم كشبه خيال
ويقول قلبي قال لي عن سره ... عن سر سري عن صفا أحوال
عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي ... عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صفو وقتي عن حقيقة مشهدي ... عن سر ذاتي عن صفات فعالي
دعوى إذا حققتها ألفيتها ... ألقاب زور لُفقت بمحال
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا ... بظواهر الجُهال والضُلال
أشمتموا أهل الكتاب بدينكم ... والله لن يرضوا بذي الأفعال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى ... وحشوا بواطنهم من الأدغال
لا يسمعون سوى الذي يهوونه ... شغلا به عن سائر الأشغال
هجروا له القرآن والأخبار والآ ... ثار إذ شهدت عليهم بضلال
ودعوا إلى ذات اليمين فأعرضوا ... عنها وسار القوم ذات شمال
خروا على القرآن عند سماعه ... صمًا وعميانًا ذوي إهمال
تالله لو كانوا صُحاة أبصروا ... ماذا دهاهم من قبيح فعال
شيخ قديم صادهم بتحيل ... حتى أجابوا دعوة المحتال
تالله ما ظفر العدو بمثلها ... من مثلهم وا خيبة الآمال

فصل

وأما قوله: وقال أيضًا: «**مَنْ دخل مسجدنا وصلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو مسلم**»(١).

فنقول: إن الواجب على العبد أن يعلم أن الله بعث محمدًا ﷺ بإذنه وسراجًا منيرًا، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وما من شيء يُقرب من الجنة ويُبعد من النار إلا وقد بيّنه لأمته، وأمرها به، وما من شيء يُقرب من النار ويُبعد من الجنة إلا بينه لأمته، ونهاها عنه، فصلاة الله وسلامه على مَنْ بلّغ البلاغ المبين، فلما أكمل الله له الدين، وأتم نعمته على المسلمين، أنزل عليه عشية عرفه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، وما مات ﷺ إلا وهو تاركٌ أصحابه على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن فهم هذا فهمًا حسنًا، وعرف سيرته وهديه الذي كان عليه هو وأصحابه، ومَنْ حكم بإسلامه ومَنْ لم يحكم بإسلامه، ومَنْ أحل دمه ومَنْ لم يُحل دمه، ومَنْ حرّم دمه ومَنْ لم يُحرّم دمه؛ عرف فساد قول هذا الضال الملبس، حيث استدل بحديث لم ينظر إلى ما قبله وإلى ما بعده.

ومن المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، أن الرسول ﷺ لم يجعل مجرد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩١) بلفظ: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته**».

دخول المساجد واستقبال القبلة كافيًا في حصول الإسلام، مع عدم التوحيد والعمل به، ولا أحدٌ من المسلمين من الصحابة والتابعين، ولا أحدًا من أئمة المسلمين في جميع المذاهب، بل من المعلوم أن الإسلام مبني على خمسة أركان، معلومة ثابتة بالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية، فأعظم أركان الإسلام أولها، وهو التوحيد، إفراد الله بالوحدانية في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وإفراده بأنواع العبادة، ونفي المشاركة عنه نفيًا مطلقًا، وهذا شرط في صحة جميع الأعمال وقبولها، وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم كلهم، فإذا فهمت أن العبد لو صلى الليل وصام النهار وزهد في الدنيا وأنفق جميع ما يملكه ولم يكن موحدًا؛ لم يصح له عمل، ولم يُقبل منه؛ عرفت أن نفس دخول المساجد واستقبال القبلة لم يكن سببًا لعصمة الدم والمال، ولم يكن هذا إسلامًا كما يقول هذا الجاهل الملبس على العوام.

ومما يكشف عن فساد شبهته وإدحاض حجته: ما سنذكره إن شاء الله من الأدلة الثابتة عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين وإجماع الأمة في قتال مَنْ يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويصلي الصلاة ويستقبل القبلة ويدخلون المساجد، إذا أتى بمبيح يوجب ذلك.

الدليل الأول: أنه ﷺ بعث مصدّقًا إلى بني المصطلق ليأخذ صدقاتهم، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القومُ، تلقوه تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق منعوني صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ، وأراد أن يغزوهم، وكان الرجل كاذبًا عليهم؛ فأنزل

الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية[1]، فهؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويصلون ويدخلون المساجد ويدَّعون الإسلام، فلو كان مجرد دخول المساجد وفعل الصلاة واستقبال القبلة يحصل به إسلام؛ لكان هؤلاء يفعلون ذلك، ولم يكن الرسول ﷺ ليغزوهم.

الدليل الثاني: أنه ﷺ لما بلغه أن رجلًا تزوج امرأة أبيه، بعث إليه بالراية، فقال الترمذي في سننه رحمه الله: باب مَنْ تزوج امرأة أبيه، قال: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثم ذكر بسنده إلى رسول الله ﷺ أنه بعث إلى رجل تزوج امرأة أبيه بالراية الحديث[2].. فدل هذا على أن الرجل إذا أظهر الإسلام، ثم أتى بما يبيح دمه وماله، فإنه هدر، فكيف إذا أتى بما يناقض التوحيد ويخرج به من الإسلام، أيكون ذلك معصومًا بمجرد فعل الصلاة واستقبال القبلة ودخول المساجد؟!

الدليل الثالث: ما وقع في زمن الخلفاء الراشدين، وذلك أنه لما مات ﷺ ارتد غالب مَنْ أسلم، وحصلت فتنة عظيمة، ثبّت الله فيها من أنعم عليه بالثبات، بسبب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه قام فيها قيامًا لم يدانه فيه أحد من الصحابة، ذكّرهم ما نسوا، وعلّمهم ما جهلوا، وشجعهم لما جبنوا، فثبّت الله به دين الإسلام، وصورة الردة أن العرب افترقت في ردتها، فمنهم مَنْ رجع إلى عبادة الأصنام، وقالوا: لو كان نبيًا ما مات، ومنهم مَنْ قال: نؤمن ولا نصلي، ومنهم مَنْ أقر بالإسلام وصلى، ولكن منع الزكاة، ومنهم

---

(١) أخرجه البيهقي (١٧٧٥٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٨٨).
(٢) أخرجه الترمذي (١٣٦٢)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٣٥١).

مَنْ أقر بالشهادتين وصلى وصام وادعى الإسلام، ولكن صدق مسيلمة في دعواه النبوة ومنهم مَنْ صدق الأسود العنسي صاحب صنعا في دعواه النبوة، ومنهم مَنْ صدق طليحة الأسدي، فأجمع الصحابة على كفرهم وردتهم، وعرفوا وجوب قتالهم، فقاتلوهم، ونصرهم الله عليهم، فقتلوا مَنْ قتلوا من رجالهم، وسبوا نساءهم وعيالهم، ولم يشكّ أحد من الصحابة في كفر مَنْ ذكرنا، وجعلوهم كلهم في حالة واحدة، مع نطقهم بالشهادتين وإتيانهم بالصلاة واستقبالهم القبلة ودخولهم المساجد وادعائهم الإسلام، إلا ما كان من مانعي الزكاة لما عزم أبو بكر رضي الله عنه قتالهم، فقال له عمر: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: «لأقاتلن مَنْ فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عقالًا وفي لفظ عناقًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»، فقال عمر رضي الله عنه: «فوالله ما هو إلا أن رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق» أخرجه البخاري في كتاب الزكاة[١]، ومسلم في كتاب الإيمان[٢]، فزالت الشبهة عنهم، وأجمع الصحابة وأهل العلم من بعدهم على تصويب قول أبي بكر في ذلك، وجعلوها من أكبر فضائله وعلمه، حيث لم يتوقف في قتالهم أول وهلة، وعرفوا غزارة فهمه في استدلاله عليهم بالدليل الذي أشكل عليهم بعينه، مع

---

(١) برقم (١٣٩٩).

(٢) برقم (٢٠).

أن المسألة موضحة في القرآن والسنة، فليتأمل العاقل الناصح لنفسه لقصةٍ واحدة منها، وهي قصة بني حنيفة، وهم أشهر أهل الردة عند العامة وأعظمهم كفرًا، وهم مع ذلك يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويؤذنون ويصلون ويقرؤون القرآن ويدّعون الإسلام، فإن قيل: إنهم يقولون مسيلمة نبي، قلنا هذا هو المطلوب، إذا كان مَنْ رفع رجلًا في مرتبة النبي ﷺ كفر وحل دمه وماله ولم تنفعه الشهادتان ولا استقباله القبلة ولا ادعاؤه الإسلام، فكيف بمن رفع قوران وشمسان وبركان وأمثالهم في مرتبة الملك الديان؟ وصرف لهم خالص حق الله تعالى، وطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله؟ سبحان الله! ما أعظم شأنه! ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

الدليل الرابع: ما وقع أيضًا في زمن الخلفاء الراشدين، وهي أن بقايا من بني حنيفة لما رجعوا إلى الإسلام وتبرؤوا من مسيلمة كبر ذنبهم في أنفسهم، وتحملوا بأهليهم إلى الثغر لأجل الجهاد في سبيل الله؛ لعل الله يمحو عنهم تلك الردة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾، فنزلوا الكوفة، وصار لهم بها محلة معروفة، ومسجد يسمى مسجد بني حنيفة، فمر بعض المسلمين على مسجدهم بين المغرب والعشاء، فسمع من بعضهم كلامًا ما معناه أن مسيلمة على حق، وهم جماعة كثيرون، لكن الذي لم يقل لم يُنكر على مَنْ قاله، فرفع أمرهم إلى ابن مسعود، فجمع مَنْ عنده من الصحابة واستشارهم: هل يقتلهم وإن تابوا، أو يستتبهم؟ فأشار بعضهم بقتلهم، وأشار بعضهم باستتابتهم، فاستتاب

بعضهم، وقتل بعضهم ولم يستتبه[١].

فليتأمل العاقل المريد معرفة الحق: إذا كان هؤلاء قد أظهروا الإسلام والأعمال الصالحة الشاقة ما أظهروا، ولم يظهر منهم إلا كلمة أخفوها في مدح مسيلمة، فسمع بها بعض المسلمين، فلم يتوقف أحد من الصحابة وغيرهم في كفر المتكلم والحاضر الذي لم يُنكر، والقصة في صحيح البخاري[٢]، فأين هذا من كلام مَنْ يزعم أنه من العلماء ويقول: إن هؤلاء المعتقدون في الأشجار والأحجار وأهل القبور وغيرها مسلمون بلا ريب؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله ويدخلون المساجد ويستقبلون القبلة؟ فحكم بإسلامهم بذلك! أين هذا مما أجمع عليه الصحابة في مَنْ قال تلك الكلمة أو حضرها ولم يُنكر؟! نعوذ بك اللهم أن نكون ممن قلت فيهم: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

الدليل الخامس: ما وقع أيضًا في زمن الخلفاء الراشدين، وهي قصة أصحاب علي لما اعتقدوا فيه الإلهية، التي تُعتقد اليوم في أناس من أكفر بني آدم وأفسقهم، فدعاهم علي رضي الله عنه إلى التوبة، فأبو، فأخدّ لهم الأخاديد، وملأها حطبًا، وأضرم فيها النار، وقذفهم فيها وهم أحياء[٣].

ومعلومٌ أن الكافر مثل اليهودي والنصراني إذا أمر الله بقتله لا يجوز

---

(١) أخرج القصة: أبوداود (٢٧٦٢) وابن حبان (٤٨٧٩)، وصححها الألباني والأرنؤوط.
(٢) برقم (٢٢٩٠) مختصرة.
(٣) أخرجه البخاري (٦٩٢٢).

إحراقه بالنار، فعُلم أنهم أغلظ كفرًا من اليهود والنصارى، هذا وهم يقومون الليل ويصومون النهار ويقرؤون القرآن، آخذين له من الصحابة، فلما غلو في علي ذلك الغلو حرقهم بالنار وهم أحياء، وأجمع الصحابة وأهل العلم كلهم على كفرهم، فأين هذا ممن يجعل عُباد القبور والأشجار والأحجار مسلمون؛ لأنهم يقولون لا إله إلا الله ويستقبلون القبلة ويدخلون المساجد؟

واعلم أن جناية هؤلاء على الألوهية، ولا علمنا لهم جناية على النبوة، والذين قبلهم جنايتهم على النبوة، ولا علمنا لهم جناية على الألوهية، فهذا مما يبين لك معنى الشهادتين اللتين هما أصل الإسلام.

الدليل السادس: ما وقع في زمن الصحابة أيضًا، وهو أن المختار بن عبيد، وهو رجل من التابعين مصاهر لعبد الله بن عمر ﷺ، مظهرٌ للصلاح، فظهر في العراق يطلب بدم الحسين وأهل بيته، فقتل ابن زياد، ومال إليه مَنْ مال لطلبه دم أهل البيت ممن ظلمهم، فاستولى على العراق، وأظهر شرائع الإسلام، ونصب القضاة والمفتين والأئمة من أصحاب ابن مسعود، وكان هو الذي يصلي بالناس الجمعة والجماعة، لكن في آخر عمره زعم أنه يوحى إليه، فسيّر إليه عبد الله بن الزبير جيشًا، فهزموا جيشه وقتلوه، وأمير الجيش مصعب بن الزبير، وتحته امرأة أبوها بعض الصحابة، فدعاها مصعب إلى تكفيره؛ فأبت، فكتب إلى أخيه عبد الله يستفتيه فيها، فكتب إليه: إن لم تتبرأ منه فاقتلها، فامتنعت؛ فقتلها مصعب بن الزبير[١]، وأجمع الصحابة كلهم

---

(١) انظر أخباره ومقتله في «البداية والنهاية»؛ لابن كثير (٨/ ٢٩٠ - ٢٩٥)، وقال: «وقد سأل مصعب.. زوجة المختار، عمرة بنت النعمان بن بشير، عنه، فقالت: رحمه الله، لقد =

على كفر المختار بن عبيد، مع إقامته شرائع الإسلام لمّا جنى على النبوة، فإذا كان الصحابة قتلوا المرأة التي هي من بنات الصحابة لما امتنعت من تكفير زوجها المختار، فكيف بمن لم يُكفر المشركين، مع معرفته بما هم عليه من الجناية على الألوهية، ويزعم أنهم مسلمون بلا ريب، وأن مَنْ دعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ليس بمسلم؟ فهل هذا إلا مسخ القلوب؟ يا ربنا نسألك العفو والعافية.

الدليل السابع: ما وقع في زمن التابعين، وذلك أن الجعد بن درهم كان من أشهر الناس في زمانه بالعلم والعبادة، فلما جحد شيئًا من صفات الله ﷻ، مع كونها مقالة خفية عند الأكثر، ضحى به خالد القسري يوم عيد الأضحى، فقال: يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، فإنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، ثم نزل فذبحه، ولم نعلم أحدًا من العلماء أنكر ذلك[1]، بل ذكر ابن القيم قدس الله روحه ونور ضريحه إجماعهم على استحسان ذلك، فقال[2]:

= كان عبدًا من عباد الله الصالحين، فسجنها، وكتب إلى أخيه - عبدالله بن الزبير - أنها تقول إنه نبي؛ فكتب إليه أن أخرجها فاقتلها». وقال عن المختار: «لم يكن في نفسه صادقًا، بل كان كاذبًا، يزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل». قلت: وقد ذكر العلماء أنه المقصود بحديث النبي ﷺ: «**إن في ثقيف كذابًا ومبيرًا**». رواه مسلم (٢٥٤٥)، فالكذاب هو، والمبير: الحجاج.

(١) انظر - لتخريج القصة والرد على من شكك فيها -: «مقالة التعطيل والجعد بن درهم»؛ للدكتور محمد بن خليفة التميمي (ص ١٨١ - ١٩٨).

(٢) في «النونية» (١/ ٥٠ - ٥١)، بشرح ابن عيسى.

شكر الضحية كلُ صاحب سنة   لـلـه درّك مـن أخـي قـربـان

فإذا كان هذا رجل من أشهر أهل العلم والعبادة، أخذ العلم عن الصحابة، أجمعوا على استحسان قتله، فأين هذا من اعتقاد أعداء الله في عبّاد القبور والأوثان أنهم مسلمون بلا ريب؟

الدليل الثامن: قصة بني عبيد بن ميمون القداح(١)، فإنهم ظهروا على رأس المائة الثالثة، فادعى عبيد أنه من آل علي، من ذرية فاطمة وتزيى بزي الطاعة والجهاد في سبيل الله، فتبعه أقوام من أهل المغرب، وصارت لهم دولة كبيرة في المغرب، ولأولاده من بعده، ثم ملكوا مصر والشام، وأظهروا شرائع الإسلام، وإقامة الجمعة والجماعة، ونصبوا القضاة والمفتين، لكن أظهروا شيئًا من مخالفة الشريعة، وظهر منهم ما يدل على نفاقهم؛ فأجمع أهل العلم أنهم كفار، وأن دارهم دار حرب، مع إظهارهم شرائع الإسلام، وفي مصر من العلماء والعباد ناس كثير، وأكثر أهل مصر لم يدخل معهم فيما أحدثوه، ومع ذلك أجمع العلماء على ما ذكرنا، حتى أن بعض أكابر أهل العلم المعروفين بالصلاح قال: لو أن معي عشرة أسهم؛ لرميت بواحدة النصارى المحاربين، ورميت بالتسعة في بني عبد.

ولما كان في زمن السلطان محمود بن زنكي، أرسل إليهم جيشًا عظيمًا، فأخذوا مصر من أيديهم، ولم يتركوا جهادهم لأجل ما فيها من الصالحين،

---

(١) انظر لبيان حال هذه الدولة الرافضية: «الصراع بين أهل السنة والرافضة: نشر الصفحات المطوية من تاريخ الدولة العبيدية الفاطمية»؛ للدكتور علي الصلابي، و«موقف الإمام الذهبي من الدولة العبيدية، نسبًا ومعتقدًا»؛ للدكتور سعد الموسى.

فلما فتحها السلطان محمود، فرح المسلمون بذلك، وصنف ابن الجوزي رحمه الله في ذلك كتابًا سماه «النصر على فتح مصر»، وأكثر العلماء التصانيف والكلام في كفرهم، مع ما ذكرنا من إظهارهم شرائع الإسلام الظاهرة، فانظر ما بين هذا وبين مَنْ يحكم بإسلام عُباد القبور والأشجار والأحجار، بمجرد قولهم لا إله إلا الله ودخول المساجد واستقبالهم القبلة، مع إقامتهم على الإشراك بالله، وصرف خالص حقه تعالى لغيره؟ فسبحان مقلب القلوب.

الدليل التاسع: قصة التتار(١)، وذلك أنهم بعد ما فعلوا بالمسلمين ما فعلوا، وسكنوا بلاد المسلمين، وعرفوا دين الإسلام؛ استحسنوه وأسلموا، لكن لم يعملوا بما يجب عليهم، وأظهروا شيئًا من الخروج عن الشريعة، مع تكلمهم بالشهادتين وإتيانهم بالصلاة واستقبالهم القبلة ودخولهم المساجد، ومع هذا كفرهم العلماء وقاتلوهم وغزوهم، حتى أزالهم الله عن بلاد المسلمين.

الدليل العاشر: إجماع العلماء على كفر مَنْ أنكر فرعًا مجمعًا عليه، مع إدعائه الإسلام ونطقه بالشهادتين وإتيانه بالصلاة واستقباله القبلة ودخوله المساجد، فلم ينفعه ذلك، ولو ذكرنا ما جرى من السلاطين والقضاة من قتل مَنْ يُظهر شعائر الإسلام إذا تكلم بكلام كفر وقامت عليه البينة أنه يُقتل، مع أن في هؤلاء المقتولين مَنْ هو أعلم الناس وأزهدهم وأعبدهم؛ مثل

---

(١) انظر «فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/ ٥٠١ - ٥٥٣)؛ لبيان حالهم وكفرهم.

الحلاج[1]، وهو من الفقهاء المصنفين؛ كالفقيه عمارة[2]، فلو ذكرنا قصص هؤلاء؛ لاحتمل مجلدات، ولا نعرف منهم رجلًا واحدًا بلغ كفره كفر عُباد القبور والأشجار والأحجار من أهل زماننا، ومع هذا كله يحكم مَنْ طبع الله على قلبه بإسلامهم بمجرد استقبالهم القبلة وإتيانهم بالصلاة ودخولهم المساجد، ومن العجب أن الكتب التي بأيديهم يزعمون أنهم يعرفونها، ويعملون بما فيها، مذكورٌ فيها مسائل الردة، وموضحٌ فيها بيان ما ذكرناه، وفيما ذكرنا كفاية لمن هداه الله، وأما مَنْ أراد الله فتنته؛ فلو تناطحت الجبال بين يديه، لم ينفعه ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

فصل

وأما قوله: «ولو كان لهم حق لما انقطعوا».

فنقول: هذا دليل على جهله وسوء فهمه وقلة علمه، أن الواجب على

---

(١) الصوفي الشهير، المقتول عام ٣٠٩هـ بفتوى العلماء. قال الذهبي: «من رؤوس القرامطة ودعاة الزندقة»، وأطال في أخباره في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣١٣ - ٣٥٤). وقال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٢/ ٤٨٣): «مانعلم أحدًا من أئمة المسلمين ذكر الحلاج بخير». وانظر: «تاريخ بغداد» (٨/ ١١٢-١٤١)، و«المنتظم» (١٣/ ٢٠١-٢٠٦)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٣٢-١٤٤).

(٢) الشاعر اليمني. قتله صلاح الدين الأيوبي ﷺ عام ٥٦٩هـ؛ بسبب تآمره مع آخرين لإعادة الدولة العبيدية الرافضية. انظر خبره في: «وفيات الأعيان» (٣/ ٤٣١ - ٤٣٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٥٩٢ - ٥٩٦)، و«عيون الروضتين» (١/ ٣٣٤).

العبد التسليم لأمر الله والإيمان بقدره والرضا بقضائه، ويعلم أن الله ربُ كل شيء وخالقه، ولا رب غيره، ولا خالق سواه، وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، وأن جميع ما في السموات والأرض من الأعيان وصفاتها وحركاتها وسكناتها، فهي مخلوقة مقدرة له، مصرَّفة بمشيئته، وكل ما يكون في الوجود فهو بقضاء الله وقدره، لا يخرج أحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خُط في اللوح المسطور، وليس لأحد على الله حجة، بل لله الحجة، فلو شاء لهداكم أجمعين، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وكل ما وقع في العالم من خير وشر، فقد سبقت به المقادير قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويُسلّم. والإيمان بالقدر والرضا به والعمل بالشرع طريق أهل الإسلام والإيمان، والاحتجاج بالقدر على الشرع طريق أهل الزيغ والطغيان.

فإذا فهمت هذا؛ فاعلم أن ما تجري به الأقدار من الحكم في الخلق من عز وذل، وحياة وموت، وإعطاء ومنع، وخفض ورفع، لا يدل على كون الشيء حقًا أو باطلًا، والحق والباطل إنما يُعرف من جهة الشريعة، فما ثبت بها أنه حق فهو حق، ولو صلبوا أهله في جذوع النخل، وخُدت لهم الأخاديد، ونُشروا بالمناشير، وما ثبت بها أنه باطل، فهو باطل، ولو بلغ أهله في القوة والملك مثل عاد التي لم يُخلق مثلها في البلاد.

وقول القائل: «حتى صار عليهم ما صار، ولما سُلط عليهم الكافر»[١].

فهذا قول باطل، لا يقوله إلا جاهل محتج على الله بقضاه، ومعارض لشرعه بقدره، ومما يبين بطلانه: تأمل ما قص الله تعالى عن نوح عليه السلام، وما جرى عليه من قومه، وخليل الرحمن عليه السلام، وما جرى عليه من قومه، وموسى عليه السلام، وما جرى عليه من قومه، والسحرة وما جرى عليهم لما آمنوا، وعيسى عليه السلام، وما جرى عليه من قومه، حتى رفعه الله، وزكريا ويحيى عليهما السلام، وما جرى عليهما من القتل، وأصحاب الأخدود وما جرى عليهم لما آمنوا، ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذكر.

فمنها: ما رواه أبو عبيدة بن الجراح قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾. قال: «يا أبو عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل وسبعون رجلًا من بني إسرائيل فأمروا مَنْ قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقُتلوا جميعًا من آخر النهار ذلك اليوم، فهم الذين ذكرهم الله ﷻ»، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عبيد الوصابي محمد بن

---

(١) شابهه في هذه الشماتة بسقوط الدولة السعودية الأولى: مناوئ آخر من مناوئي دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، أعني: عثمان بن منصور، الذي يقول في رده على الشيخ: «قاد على أهل نجد الدواهي العظام، التي لا تُطاق ولا تُرام»؛ فرد عليه الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن - رحمهما الله - بقوله: «هذا الكلام لا يعترض به إلا جاهل بأيام الله، وأخبار الناس، وما قص الله عن رسله وأكابر أوليائه... إلخ». «مصباح الظلام» (ص ١٥١ وما بعدها).

حفص عن محمد بن حِمير عن أبي الحسن مولى بني أسد عن مكحول به[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره، رواه ابن أبي حاتم[٢]، فهل يجوز لعاقل أن يقول: لو كان هؤلاء المقتولون من الأنبياء وأتباعهم على حق لما سُلط عليهم ولما انقطعوا؟! ومن المعلوم أنه لا يقوله عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر.

ومنها: ما رواه ابن جرير[٣] عن يونس بن عبد الأعلى قال: أنبأنا ابن وهب قال: أخبرني سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال: سمعت ابن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دمًا يغلي، فقال: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (برقم ٦٧٨٠)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (برقم ٥٤٦١)، وقال: «من غير المعقول أن يتوفر هذا العدد الكبير من الأنبياء في وقت واحد، وبلد واحد، ويتمكن اليهود من ذبحهم قبل انتهاء النهار. . - ثم أورد حديث» كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي «وقال: هذا صريح في أن أنبياء بني إسرائيل كان يخلف بعضهم بعضًا، ويأتي أحدهم بعد الآخر؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: متواترين، واحدًا بعد واحد. نعم؛ ذلك لا ينفي أن يُرسل الله أكثر من رسول - بله نبي - واحد، في وقت واحد؛ لحكمة يعلمها، مثل هارون مع موسى، وقوله في أصحاب القرية: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ . وأما بعث مثل ذاك العدد الضخم من الأنبياء في زمن واحد، فليس من سنة الله تبارك وتعالى».

(٢) عن «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٣).

(٣) في «تفسيره» (٨/ ٢٠).

هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر[١]، فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم، فسكن، وهذا هو المشهور أنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى لم يبق مَنْ يحفظ التوراة، وأخذ منهم خلقًا كثيرًا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجعلهم خدمًا للمجوس، ومكث سبعين سنة، وقيل مائة سنة، مفسد في الأرض المقدسة، جاعلًا المسجد الحرام مربطًا للخيل والبغال والحمير، لا يُذكر الله فيه هذه المدة الطويلة، استهانة به وبحرمته، وجرت أمور يطول ذكرها، وهي مذكورة على تفسير صدر سورة الإسراء[٢]، فمن أراد معرفة تفصيل ذلك فليراجعه في مظانه، فمن عرف ما جرى على هؤلاء من القتل والأسر وتسليط الكافر عليهم، مع أنهم أولاد الأنبياء وأهل الشرائع؛ عرف فساد قوله، واحتجاجه بقوله: لو كان لهم حق لما انقطعوا!

ومنها: ما جرى على رسول رب العالمين وسيد المرسلين، وصفوة الخلق أجمعين، من الابتلاء والامتحان، لما دعا إلى إخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه؛ كحصاره في الشِعب، وتطريد أصحابه إلى الحبشة، وإلجائه وصاحبه في غار ثور، وإخراجه من مكة إلى المدينة، ثم تحزيبهم عليه فيها، ثم جرت أمور يطول ذكرها، وهي غير خفية على مَنْ عرف هديه وسيرته، فإذا

---

(١) أي: كلما ازدادت القمامة وارتفعت؛ كان الدم يظهر ويعلو عليها.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٢٨)، وقال عن خبر بختنصر: «هذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى أنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقا كثيرا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم».

كان هذا القدَر يجري على رسول الله ﷺ وأصحابه، فعلى مَن دونهم من المسلمين القائمين بدعوته، المنتسبين إلى دينه وهديه، أولى وأحرى فلا يظن عاقل أن أهل قرن ثلاثة عشر قرنًا أعقل وأصلح من القرن الأول، ومَنْ كان له أدنى عقل ومعرفة لم يقل إن هؤلاء الأنبياء وأتباعهم ممن ذكرنا، لو كانوا على حق لما جرى عليهم ما جرى، وإن أعداءهم على حق لطغيانهم وغلبتهم على أولئك، ومن المعلوم أنه لا يقول هذا رجل عاقل، يؤمن بالله واليوم الآخر.

ومع هذا كله؛ فالدين ولله الحمد عزيز منيع لا يُضام ولا يرام، يعلو ولا يُعلى عليه إلى يوم القيامة، وقوله هذا قول مَنْ لا بصيرة له، ونظره مقصور على دنياه، وفي أمثال هذا قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وقد جرت عادة الرب جل جلاله أنه يبتلي عباده، ثم يُحسن لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، والابتلاء في الغالب يدل على محبة الله للمبتلى، إذا اقترن مع الصبر على بلاء الله الرضا بقضاء الله، كما قال ﷺ: **«إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومَنْ سخط فله السخط»**(١)، ولهذا كان: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل**

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (برقم ١٤٦).

فالأمثل، يبتلى المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة»[١].

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن مَنْ ادعى الإيمان فلا بد أن يبتليه، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وقال تعالى مخاطبًا لأصحاب نبيه ﷺ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

ولم يزل العبد متقلبًا بين أحوال ثلاثة: نعمة من الله تترى عليه، فيجب عليه فيها الشكر، وابتلاء من الله، فيجب عليه الصبر، وذنوب يقترفها، فيلزمه منها أن يستغفر.

فمن كانت هذه صفاته، فكل ما أصابه من نفوذ القضاء والقدر فهو خير له، كما قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[٢].

والابتلاء الذي يصيب المؤمن في الله لا يخرج عن أقسام أربعة: فإما أن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

يكون في نفسه أو في ماله أو في عرضه أو في أهله ومَنْ يحب. فهذا مجموع ما يُبتلى به العبد في الله، وأشد هذه الأقسام المصيبة في النفس، ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، وهذا غاية المؤمن المبتلى في نفسه أن يُستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها وأفضلها وأعلاها؛ لما رتب الله عليها من النعيم المقيم والثواب العظيم، ولا تُبلغ درجة الشهادة إلا بإدالة العدو على هذا المؤمن وغلبته عليه، فمن جعل هذا الابتلاء دليلًا على بغض الله للمبتلى؛ فإنه مشؤوم محروم.

لكن مما ينبغي فهمه: أن المؤمن ما يؤتى إلا من قِبل نفسه، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فاقتضت الحكمة الإلهية أن المؤمنين يُدالون تارة، ويُدال عليهم أخرى، لما له في ذلك من الحِكم والأسرار العظيمة التي لا يعلم تفصيلها إلا الله:

فمنها[1]: استخراج عبوديتهم وذلهم وانكسارهم له، وافتقارهم إليه، وسؤاله نصره على أعدائهم، ولو كانوا دائمًا منصورين قاهرين غالبين بطروا وأشروا، ولو كانوا دائمًا مقهورين مغلوبين لما قامت للدين قائمة، ولا كانت للحق دولة، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرّفهم بين غلبهم تارة

(١) يُلخصها المؤلف من «إغاثة اللهفان»؛ لابن القيم (٢/ ١٨٧ ١٩٥).

وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غُلبوا تضرعوا إلى ربهم وأنابوا إليه وخضعوا له وانكسروا له وتابوا إليه، وإذا غَلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وجاهدوا عدوهم، ونصروا أولياءه.

ومنها: أنه يتميز بذلك مَنْ يريد الله ورسوله، ومَنْ ليس له مرادٌ إلا الدنيا والجاه.

ومنها: أنه سبحانه يُحب من عباده تكميل عبوديته في السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى تلك الحال لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصَب وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول كمال الإنسان.

ومنها: أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم، يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم من الذنوب؛ كما قال تعالى في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أُحُد: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فذكر أنواعًا من الحِكم التي أديل عليهم الكفار بعد أن بشرهم بأنهم الأعلون بما أُعطوه من الإيمان، وسلاهم بأنهم وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله، فقد مس

أعداءهم القرحُ في عداوته وعداوة رسوله، ثم أخبر أنه سبحانه بحكمته جعل الأيام دولًا بين الناس، فيصيب كلٌ منهما نصيبه منها؛ كالأرزاق والآجال، ثم أخبر أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه، ثم أخبر أنه يُحب أن يتخذ منهم شهداء، فإن الشهادة درجة عالية عنده، ومنزلة رفيعة لا تُنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هيَ من أحب الأشياء وأنفعها للعبد، ثم أخبر سبحانه أنه يريد أن يمحص المؤمنين من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفارهم من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائمًا منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه في بعض الأحيان، لا ما يقوله هذا الجاهل الضال: لو كان لهم حق في ذلك لما انقطعوا ولما سُلط عليهم الكافر!

وتمام هذا الكلام إنما يتبين بمعرفة أصول نافعة جامعة:

الأصل الأول: أن ما يصيب المؤمنين من الشر والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار، والواقع شاهد بذلك، وكذلك ما يصيب الأبرار في هذه الدار، دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير.

الأصل الثاني: أن ما يصيب المؤمن في الله مقرون بالرضا والإحسان، فإن فاتهم الرضا والإحسان، فمعولهم على الصبر والاحتساب، وذلك يُخفف عنهم ثقل البلاء ومؤنته، فإنهم كلما شاهدوا العِوَض هان عليهم

تحمل المشاق والبلاء، والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب، وإن صبروا فكصبر البهائم، وقد نبه الله على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ الآية.

الأصل الثالث: أن المؤمن إذا أوذي في الله فإنه محمول عنه بحسب طاعته وإخلاصه ووجود حقائق الإيمان في قلبه، حتى يُحمل عنه من الأذى ما لو كان شيء منه على غيره لعجز عن حمله، وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن.

الأصل الرابع: أن المحبة كلما تمكنت في القلب ورسخت فيه كان أذى المحب في رضا محبوبه مستحلىً غير مسخوط، والمحبون يفتخرون عند أحبائهم بذلك، حتى قال قائلهم:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة   لقد سرني أني خطرتُ ببالك

وقال آخر:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي   متأخَّر عنه ولا متقدَّم

أجد الملامة في هواك لذيذة   حبًا لذكرك فليلمني اللوم

الأصل الخامس: أن ما يصيب الكافر والمنافق من العز والنصر والجاه دون ما يصيب المؤمنين بكثير، بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه، قال الحسن رحمه الله: وإن هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال، فإن ذل المعصية لفي رقابهم، أبى الله إلا أن يُذل مَنْ عصاه.

الأصل السادس: أن ابتلاء المؤمن كالدواء له، يُستخرج به الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء؛ ليستعد به لتمام الأجر وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا المؤمن خير من عدمه.

الأصل السابع: أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة العدو عليه وغلبته وأذاه له في بعض الأحيان أمرٌ لازم لا بد منه، وهو كالحر الشديد والبرد الشديد والأمراض والهموم والغموم، فهذا لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتى للأطفال والبهائم، لما اقتضت حكمة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللذة عن الألم؛ لكان ذلك عالمًا غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التي لأجلها مُزج بين الخير والشر، والألم واللذة، والنفع والضر، وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

الأصل الثامن: أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وخلق الموت والحياة وزين الأرض بما فيها لابتلاء عباده وامتحانهم؛ ليعلم مَنْ يريده ويريد ما عنده، ممن يريد الدنيا وزينتها، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾، فالناس

إذا أُرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، أو لا يؤمن، ولا بد من امتحان هذا وهذا، فأما مَنْ قال آمنت، فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه، ليُبين هل هو صادق في قوله آمنت أو كاذب؟ فإن كان كاذبًا رجع على عقبيه، وفر من الامتحان كما يفر من عذاب الله، وإن كان صادقًا ثبت على قوله ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيمانًا على إيمانه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

الأصل التاسع: وهو أن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب، إذا كانت على باطل، وفي مخالفتهم ألم وعذاب إذا لم يوافق هواهم واعتقاداتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المرتب على موافقتهم.

الأصل العاشر: مما ينبغي أن يُعلم أن الله ﷻ أرحم بعبده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه، ومن رحمته به إيصال المنافع والمصالح إليه، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها، قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأرحم الناس بك مَن يشق عليك في

إيصال مصالحك ودفع المضار عنك، ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير أغراضه وشهواته من رحمته به، لكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه، ولا يعلم إحسانه إليه في ابتلائه وامتحانه، وقد جاء في الأثر: «إن الله إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه»[1]، وهذا من تمام رحمته به، لا من بخله عليه، كيف، وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها؟ ومن رحمته بعباده المؤمنين أن نغّص عليهم الدنيا وكدّرها؛ لئلا يسكنوا إليها ويطمئنوا إليها، وليرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم، ومن رحمته بهم أن حذّرهم نفسه لئلا يغتروا به، ويعاملوه بما لا يحسن معاملته به، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

فمن تأمل ما ذكرناه من الأسرار وبعض الحِكم الإلهية في تسليط أعداء الله الكافرين على أوليائه المؤمنين عرف أن ما قاله هذا الجاهل باطل، واستدلاله فاسد، وحجته داحضة، فهذا آخر ما لخصناه من كلام أئمتنا رحمهم الله لمناسبة سياق هذا الفصل، والله الموفق لا رب غيره، ولا معبود سواه، والفضل بيد الله يؤتيه مَنْ يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

فصل

وأما قوله: «أرى من سنتين أو ثلاث، ولم يزل من رعاياك اعتقادات فاسدة وأفعال ردية، فلازمٌ وواجبٌ على جنابك أن تأمرهم بالأفعال الحسنة الموافقة للشريعة، فإلى الآن تركوا القنوت والجهر بالتسمية، واقفون على أقوالهم وأفعالهم».

فنقول: هذا دليل على جهله وقلة علمه؛ لإطلاقه هذا القول على ترك القنوت والجهر بالتسمية، ومَنْ له أدنى اطلاع بما عليه الأئمة من أهل العلم لم تسمح نفسه بهذا القول وما يشابهه، وإنما الواجب على مَنْ كان يدعي العلم دلالة الناس على أداء الواجبات، ويبدأ بالأهم فالأهم؛ كالأمر بتوحيد الله في العبادة، الذي هو أصل الأصول ومركز دائرة أهل المنقول والمعقول، والقطب الذي يدور عليه الحاصل والمحصول، والأساس الذي عليه بناء مدينة العلم الذي فيها النزول والحلول، والصراط الذي عليه السير والوصول، إلى غير ذلك من القواعد الإسلامية والأصول الإيمانية، وينهاهم عن فعل المحرمات؛ كالإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وقتل النفس التي حرم الله. وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات والفجور، وغير ذلك من أنواع الظلم والعدوان، مما قد عمت به البلوى في العباد والبلاد، ومَنْ تأمل هديه وسيرته وجد الأمر كما ذكرنا.

وأما مسألة الجهر بالتسمية والقنوت؛ فهي من مسائل الجزئيات التي لم يقع بيننا وبين الناس خلاف في ذلك، لا سيما المختلف فيها أهل العلم،

وإنما الخلاف بيننا وبينكم عند مسألة التوحيد والشرك.

وأما الكلام على الجهر والإخفاء بالبسملة[١] مبني على أن البسملة هل هي آية من الفاتحة، أو من كل سورة، أو آية مستقلة في أول كل سورة، أو أنها بعض آية في أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كُتبت للفصل لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا، مبسوطًا في مواضعه[٢].

ومَنْ حُكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ﵃، ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه وإسحق بن راهوية وأبو عبيد القاسم ابن سلام رحمهم الله تعالى.

وقال مالك وأصحابه وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وزفر وغيرهم من المالكية والحنفية: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي ﵀ في قول في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليس من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان.

---

(١) المؤلف يُلخص هذا المبحث الفقهي من كتاب «نيل الأوطار»؛ للشوكاني. فانظره في (٤/ ١١٤ وما بعدها) من طبعة الشيخ صبحي حلاق. وتخريج الأحاديث منه -جزاه الله خيرًا.

(٢) انظر توثيق الأقوال وأدلتها في: «نيل الأوطار» - كما سبق -، وفي رسالة: «مسألة التسمية، تخريج أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ويليه: توضيح المسألة وتحقيق الحق في الجهر بالبسملة بين الفقهاء والمحدثين والقراء»؛ لعبد الله بن علي مرشد.

وقال داود بن علي الظاهري: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكاه أبو بكر الرازي عن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله، هذا مما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا.

فأما الجهر؛ ففرعٌ على هذا، فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا مَنْ قال إنها آية في أولها، وأما مَنْ قال بأنها آية من أوائل السور؛ فاختلفوا، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنها يجهر بها مع الفاتحة والسور، وهذا مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية، ومن التابعين سعيد بن جبير وعكرمة وأبو قلابة والزهري وعلي بن الحسين وسعيد بن المسيّب وعطاء وطاوس ومجاهد وسالم ومحمد بن كعب القُرظي وأبو بكر ابن محمد بن عمر وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء ومكحول وأناس غيرهم.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة؛ لما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدًا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم» رواه أحمد[1] ومسلم[2]، وفي لفظ: «صليت خلف النبي ﷺ وخلف أبي بكر وعمر وعثمان فكانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم» رواه أحمد[3] والنسائي[4] بإسناد على شرط

---

(١) في المسند (٣/ ١٧٧، ٢٧٣).
(٢) (٣٩٩).
(٣) في المسند (٣/ ١٧٩، ٢٧٥).
(٤) في الكبرى (٩٨١).

الصحيح، ولأحمد[(١)] ومسلم[(٢)]: «صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها»، ولعبد الله بن أحمد بن حنبل في مسنده[(٣)] عن أبيه عن شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: «صليت خلف النبي ﷺ وخلف أبي بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يستفتحون القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم»، قال شعبة: فقلت لقتادة: أنت سمعته من أنس؟ قال: نعم نحن سألناه عنه، وللنسائي[(٤)] عن منصور عن زاذان عن أنس قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ فلم يُسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمعها منهما».

وعن عبد الله بن المغفّل رضي الله عنه قال: سمعني أبي وأنا أقول: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «يا بني إياك والحدَث - قال: ولم أر من أصحاب رسول الله ﷺ رجلًا كان أبغض إليه حدثًا في الإسلام منه - فإني صليت مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر ومع عمر ومع عثمان فلم أسمع أحدًا منهم يقولها فلا تقلها، إذا أنت قرأت فقل الحمد لله رب العالمين» رواه الإمام أحمد في مسنده[(٥)] وأبو عيسى الترمذي في جامعه[(٦)] وأبو عبد الرحمن النسائي في

---

(١) في المسند (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) (٣٩٩).

(٣) زوائد المسند (٣/ ٢٧٨).

(٤) في الكبرى (٩٨٠).

(٥) (٤/ ٨٥).

(٦) (٢٤٤).

سننه[١] وابن ماجه القزويني في سننه[٢]، فهذا هو الثابت عن رسول الله ﷺ وعن الخلفاء الراشدين وطوائف من سلف التابعين والخلف، ومذهب أبي حنيفة وسفيان الثوري والإمام أحمد بن حنبل، وذهب الإمام مالك إلى أنه لا يقرأ بالبسملة بالكلية لا سرًا ولا جهرًا، واحتج بما في صحيح مسلم[٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين»، وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا كلهم يستفتحون بالحمد لله رب العالمين»[٤]، ولمسلم[٥]: «لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها»، فهذا مأخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة، وهي قريبة، وأجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومَنْ أسرّ، ولله الحمد والمنة، ولم يرَ أحدٌ منهم تعزير مَنْ أسر بها، كما أنهم لا يرون زجر مَنْ جهر بها ولا التشنيع عليه، كما يقوله هذا الجاهل بحقيقة العلم وما عليه العلماء.

وأما القنوت في الفجر[٦]؛ فللعلماء فيه ثلاثة أقوال[٧]:

القول الأول: أن المداومة عليه سنة، وهو مذهب مالك والشافعي ومحمد

---

(١) في الكبرى (٩٨٢).

(٢) (٨١٥).

(٣) (٤٩٨).

(٤) أخرجه مسلم (٣٩٩)، وأخرجه البخاري في «جزء القراءة» (١١٩و١٢٠).

(٥) (٣٩٩).

(٦) المؤلف يُلخص هذا المبحث الفقهي من كتاب «نيل الأوطار»؛ للشوكاني. فانظره في (٤/ ٥٢٥ ومابعدها) من طبعة الشيخ صبحي حلاق. وتخريج الأحاديث منه -جزاه الله خيرًا.

(٧) انظر توثيق الأقوال وأدلتها في: «نيل الأوطار» - كما سبق -، وفي رسالة: «مرويات =

ابن جرير الطبري، إلا أن المالكية حكوا عن مالك فيه روايتين: هل هو مستحب أو سنة؟ بناء على قاعدتهم أن ترك السنة عمدٌ تُعاد له الصلاة، وحكى محمد بن جرير الإجماع أن تركه غير معيد للصلاة، وجعله أصحاب الشافعي من الأبعاض التي يُشرع لأجلها سجود السهو، وروي عن الحسن البصري أيضًا شرع لتركها سجود السهو.

والقول الثاني: أن القنوت في الفجر منسوخ، وأن المداومة عليه بدعة، وهو قول أبي حنيفة والليث بن سعد ويحيى بن يحيى من المالكية، وقالوا: لا قنوت في الفجر ولا غيرها من الصلاة، واستدلوا بأن النبي ﷺ قنت شهرًا ثم ترك، لما رواه أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قنت شهرًا ثم ترك» رواه الإمام أحمد[1]، وفي لفظ: «قنت شهرًا يدعو على أحياء من أحياء العرب» رواه الإمام أحمد[2] ومسلم[3] وابن ماجه[4]، وفي لفظ: «قنت شهرًا حين قتل القراء، فما رأيته حزن حزنًا قط أشد منه» رواه البخاري[5]، وعن أبي مالك الأشجعي قال: قلت لأبي: يا أبتِ قد صليتَ خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ها هنا قريبًا من خمسين سنة، أكانوا يقنتون؟ قال: «أي

= قنوت الفجر: دراسة حديثية نقدية مقارنة وشيء من فقهها»؛ لطلال الطرابيلي، ورسالة «أحكام القنوت»؛ عبدالله بن عبدالرحمن الحميضي.

(١) في المسند (٣/ ٩١).
(٢) في المسند (٣/ ١٩١، ٢٤٩، ٢٥٢).
(٣) (٦٧٧).
(٤) (١٢٤٣).
(٥) (١٠٠٢).

بني محدَث» رواه أحمد[١] والترمذي وصححه[٢]، وابن ماجه[٣]، وفي لفظ[٤]: «أكانوا يقنتون في الفجر؟»، وللنسائي[٥] ولفظه: «صليتُ خلف رسول الله ﷺ فلم يقنت، وصليتُ خلف أبي بكر فلم يقنت، وصليتُ خلف عمر فلم يقنت، وصليتُ خلف عثمان فلم يقنت، ثم قال: أي بني بدعه».

وأجاب مَنْ استحبه: بأن المراد ترك الدعاء لمن سمي، وترك الدعاء على من سمي، لا أنه ترك أصل القنوت؛ بدليل الزيادة التي رواها الدارقطني[٦] والحاكم[٧] والبيهقي[٨]، وهي: «لم يزل يقنت حتى فارق الدنيا»، وفي إسناده أبو جعفر الرازي، وقد اختلفوا فيه، فوثقه يحيى بن معين وعلي بن المديني وأبو حاتم الرازي، وقال الفلاس: سيء الحفظ، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقد صحح هذا الحديث الحافظ أبو عبد الله محمد ابن علي البجلي والحاكم والدارقطني والبيهقي والنووي وغيرهم، رحمهم الله تعالى[٩].

---

(١) في المسند (٣/ ٤٧٢).
(٢) (٤٠٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٣) (١٢٤١).
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٢٤١)، وصححه الألباني.
(٥) (١٠٧٩).
(٦) (٢/ ٣٩).
(٧) (١/ ٢٢٥ - ٢٢٦).
(٨) (٢/ ٢٠٢).
(٩) انظر: «نيل الأوطار» (٤/ ٥٣٠ - ٥٣٣).

القول الثالث: وهو الصحيح[1]، أن القنوت يُسن عند الحاجة إليه؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد ويدعو لأحد قنت بعد الركوع، فربما قال بعد ما يقول: **سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد: اللهم أنج الوليد** بن الوليد **وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف**، قال: يجهر بذلك، ويقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: **اللهم العن فلانًا وفلانًا**، حيين من العرب، حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية» رواه الإمام أحمد[2] والبخاري[3]، وفي لفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**»، ثم قال قبل أن يسجد: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**» رواه البخاري[4].

وعنه أيضًا قال: «لأُقربن لكم صلاة رسول الله ﷺ، فكان أبو هريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة الظهر والعشاء الآخرة وصلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار» رواه الإمام

---

(١) وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ كما في «الفتاوى» (٢٣/ ١٠٤ - ١١٦)، وابن القيم؛ كما في «زاد المعاد» (١/ ٢٧١ - ٢٢٨٥).

(٢) في المسند (٢/ ٢٥٥).

(٣) (٤٥٦٠).

(٤) (١٠٠٦).

أحمد[١] والبخاري[٢] ومسلم[٣]، وفي رواية لأحمد[٤]: «وصلاة العصر» مكان العشاء الآخرة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ رواه أحمد[٥] والبخاري[٦].

وأما القنوت في الوتر؛ فهو جائز ليس بلازم؛ لما رواه الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «علمني ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: **اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، إنه لا يذل مَنْ واليت، تباركت وتعاليت**»[٧]، وزاد البيهقي[٨]: «**ولا يعِز مَنْ عاديت**» قبل تباركت، قال ابن النحوي[٩]: ولا أعلم بإسنادها بأسًا، وادعى

---

(١) في المسند (٢/ ٢٥٥).

(٢) (٧٩٧).

(٣) (٦٧٦).

(٤) (٢/ ٢٥٥).

(٥) في المسند (٢/ ١٤٧).

(٦) (٤٠٧٠).

(٧) أخرجه أبوداود (١٤٢٥)، وصححه الألباني..

(٨) (٢٩٥٧).

(٩) هو ابن الملقن. قال الدكتور عبدالعزيز المشيقح في مقدمة تحقيقه لكتابه: «الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (١/ ٢٦): «اشتهر بهذا -أي بلقب ابن النحوي- في بعض البلاد؛ كاليمن».

النووي في الخلاصة ضعفها[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقنت بذلك في الصبح، قال ابن النحوي[٢]: رواه البيهقي[٣] بإسناد جيد، وزاد النسائي[٤]: «وصلى الله على النبي»، قال ابن النحوي: بإسناد حسن[٥].

فمن الصحابة مَنْ لم يقنت، ومنهم مَنْ قنت في النصف الأخير من رمضان، ومنهم مَنْ قنت السنة كلها، والعلماء منهم من يستحب الأول كمالك، ومنهم مَنْ يستحب الثاني كالشافعي وأحمد في رواية، ومنهم مَنْ يستحب الثالث كأبي حنيفة والإمام أحمد في رواية، والجميع جائز، فمن فعل شيئًا من ذلك فلا لوم عليه؛ لاتباع سبيل مَنْ كان قبله من هؤلاء الأئمة، وقد سئل الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام عن الجهر بالتسمية والقنوت في الفجر وغيرها؛ فأجاب رحمه الله بقوله[٦]: «كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعين من بعدهم منهم مَنْ يقرأ بالبسملة ومنهم مَنْ لا يقرأها، ومنهم مَنْ يجهر بها ومنهم مَنْ لا يجهر، ومنهم مَنْ يقنت في الفجر ومنهم مَنْ لا يقنت، ومنهم مَنْ يتوضأ من الحجامة ومنهم مَنْ لا يتوضأ، ومنهم من يتوضأ من مس الذكر ومنهم مَنْ لا يتوضأ، ومنهم مَنْ يتوضأ مَنْ مس المرأة بشهوة

(١) خلاصة البدر المنير (١/ ١٢٩).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٢٨).
(٣) (٢٩٥٩).
(٤) (١٤٤٣).
(٥) المرجع السابق (١/ ١٢٩).
(٦) في «الفتاوى» (٢٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥).

ومنهم مَنْ لا يتوضأ، ومنهم مَنْ يتوضأ من أكل لحم الجزور ومنهم مَنْ لا يتوضأ، ومع هذا كان بعضهم يصلي ببعض، مثل ما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعية وأصحابهم وغيرهم، رضوان الله عليهم، يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم، وإن كانوا لا يقرأون البسملة لا سرًا ولا جهرًا، وصلى الرشيد إمامًا وقد احتجم، وصلى الإمام أبو يوسف خلفه، وكان الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه به رعاف وحجامه، فقيل له: وإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه؟ قال: لِمَ لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب».

فليتأمل العاقل ما درج عليه السلف الصالح وأهل العلم، ويتأمل ما قاله هذا الجاهل من التشنيع على مَنْ ترك الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر، وما يلزمه في قوله ذلك، ومما يدلك على معرفة الله وقدرته على تقليب القلوب، أنه منذ مدة مديدة وأزمنة عديدة، وهو يشاهد من غالب الناس مِن نبذ الشرائع وتضييع الفرائض وترك الطاعات وفعل المحرمات أشياء تفوق العد والإحصاء، وأشهرها عندهم الإشراك بالله والقول بتجويزه على الله بلاعلم، ومع هذا خرس عن إنكاره، راضٍ عن فاعله، مع تصريح القرآن بتحريمه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. آخرها، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

المقدمة ٥
ترجمة المؤلف: ٩
أما المردود عليه: ١٠
الطبعة السابقة للكتاب: ١١
نُسخ الكتاب: ١٢
صورة غلاف طبعة الشيخ الخليفي رَحِمَهُ اللَّهُ ١٤
صورة غلاف «المجموع المفيد» الذي طُبعت ضمنه رسالة «الصيّب الهطال» ١٥
صورة الورقة الأولى من مخطوطة جامعة الإمام ١٦
صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة جامعة الإمام ١٧
صورة الورقة الأولى من مخطوطة الشيخ الشغدلي رَحِمَهُ اللَّهُ ١٨
صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة الشيخ الشغدلي رَحِمَهُ اللَّهُ ١٩
بداية الرسالة ٢١
معنى حديث افتراق الأمة، مع ذكر أسماء بعض الفرق البدعية ٢٨
فصل: الفرقة الناجية، وعقيدتها ٣٦
فصل: وأما قول القائل: وجدنا مذهبًا يقال له وهابيًا ٣٩
فصل: ما نُسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الأقوال الباطلة كذب وبهتان ٤٧

فصل: مذهب الشيخ محمد بن عبدالوهاب في التكفير ٥٦
فصل: الأصناف الذين يُكفرهم الشيخ ٥٩
فصل: في أنواع التوحيد، وأنواع العبادات التي لا تُصرف إلا لله ٦٢
فصل: رد قوله عن الشيخ: «إنما حمله على ذلك حطام الدنيا»! ٨٥
فصل: سوء فهمه لحديث: **«عليكم بالسواد الأعظم»** ٩٠
فصل: سوء فهمه لحديث: **«لا تجتمع أمتي على ضلالة»** ٩٧
فصل: سوء فهمه لحديث: **«مَنْ دخل مسجدنا وصلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو مسلم»** ١٠٢
عشرة أدلة على تكفير المسلم إذا ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام ١٠٣
فصل: رد قوله عن أهل الدعوة: «لو كان لهم حق لما انقطعوا» ١١٢
ابتلاء الله لعباده، وحكمته فيه ١١٧
فصل: جهله في استنكاره على المؤلف ترك القنوت والجهر بالتسمية ١٢٦
وأما الكلام على الجهر والإخفاء بالبسملة ١٢٧
وأما القنوت في الفجر ١٣٠
وأما القنوت في الوتر ١٣٤
الفهرس ١٣٧




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

